

فنون الأدب العربي

الفن القصصي

١

المقامة

بقلم
الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف

فنون الأدب العربي
الفن القصصي

المقامة

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة



دار المغارف بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

فن المقامة من أهم فنون الأدب العربي ، وخاصة من حيث الغاية التي ارتبطت به ، وهي غاية التعليم وتلقين الناشئة صيغ التعبير ، وهي صيغ حُلِّيت بألوان البديع ، وزُيِّنت بزخارف السجع ، وعُشِّيَ أشدَّ العناية بنسبها ومعادلاتها اللفظية ، وأبعادها ومقابلاتها الصوتية .

وبدیع الزمان هو الذي مهَّد الطريق وعبَّده لظهور هذا الفن ، وخلفه الحريري ، فتبيَّن المعالم والصوَى بأوضح مما تبيَّن سلفه ، إذ كان أوسع ثقافة ، وأحكم صياغة ، وأقوى تعبيراً ، فإذا هو يصل بالفن إلى القمة التي كانت تنتظره ، وإذا مقامته تصبح المعجزة الخارقة التي لا تُسبَق ولا تُسلَحَق على مر العصور .

وعكف عليها الطلاب والأدباء في جميع الأقاليم العربية يتدارسونها ويحفظونها ويُرَتِّلونها على نحو ما تُرَتَّلُ الأناشيد الدينية . ولم تَعْقُهم عن إعجابهم بها حواجز الصناعة التي أقامها الحريري من كُنَايات وأمثال وألغاز أحياناً ، بل ظلوا خاشعين ، مشدوهين .

وكثُرَ مَنْ قَلَّدوا الحريري واحتذوا على مثاله ، ولكنهم كانوا دائماً يقعون على السَّفْح من دونه ، إذ كانت أجنحتهم من الضعف بحيث لم يستطيعوا أن يبلِّغوا في الأفق الذي حلَّق فيه ، وبذلك ظل اسمه يلعب ويتألق طوال تسعة قرون .

حتى إذا كان القرن الماضي ظهر ناصيف اليازجي بلبنان ، ونسج المقامة نسجاً فريداً ، غير أنه لم يستطع أن يصعد إلى مراقي الحريري وإبداعه ،

لذ لم تكن له ملكاته ولا مواهبه . وكأنما كُتِبَ في ألواح القدر أن يظل الحريريّ
يتيمة الدهر وعبقريّة الفنّ الذي لا يبارى ولا يجارى في هذا الفن .

وقد حاولت أن أصور ذلك وأفسره بادئاً من الخطوات الأولى لصنع
المقامة ، ومنتهياً بالخطوات الأخيرة . وفي أثناء هذه المحاولة رجعت إلى ما كتبه
الباحثون المختلفون من عرب ومستشرقين عن المقسامة وأصحابها ،
وبفضلهم جميعاً وضعت هذا الكتّيب . وأنا أقدمه إلى الشباب
مؤملاً أن يشوقهم إلى قراءة هذا الفن والإدمان على مراجعة صحفّه عند
أقطابه ، حتى يمتلكوا ناصية اللغة ، وحتى تتحول إليهم هذه الثروة اللفظية
بجواهرها وعقودها المنظومة ، درة بجانب درة ، ولفظة بليغة بجانب لفظة بليغة ،
فيكون لهم عتاد لغوي واسع ، ومخزون لفظي وافر ، بجانب الثقافة الحديثة
والمحتويات الأدبية الجديدة . وأعترف بأنّي لم أكتب إلا لحة خاطفة ، ونظرة
طائرة . والله وليّ الهدى والتيسير .

شوقي ضيف

القاهرة في أول فبراير سنة ١٩٥٤ م

معنى المقامة

١

المعنى اللغوي

إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وجدنا كلمة مقامة تستعمل بمعنيين ، فتارة تُستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديتها ، على نحو ما نرى عند زهير إذ يقول :

وفيهـم مَقَامَاتُ حَسَانُ وجوهـا وأنـدِيـةً يَسْتَأْبُهـا القـولُ والفـعلُ

وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادي ، على نحو ما نرى عند لبيد إذ يقول :

ومَقَامَةٌ غُلَبٍ^(١) الرقاب كأنهم جِنٌ^(٢) لدى باب الحَصِيرِ^(٣) قيام

فالكلمة تستعمل منذ العصر الجاهلي بمعنى المجلس أو من يكونون فيه . ونقدم في العصر الإسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم أكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة .

وعلى هذه الشاكلة تُعَفَى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائماً أم جالساً . وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في المقامة الوعظية ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندري يخطب في الناس واعظاً واعظاً بديعاً ، وراع ذلك منه عيسى بن هشام فقال لبعض السامعين :

(١) غلب : جمع أغلب وهو الغليظ الرقة .

(٢) الحَصِير هنا : الملك .

« من هذا ؟ فقال : غريب قد طراً لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته » .

٢

المعنى الاصطلاحي

وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء ، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقَى في جماعات ، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث . وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام ، كما يتخذ لها بطلاً واحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم .

وليس في القصة عقدة ولا حبكة ، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يُعْنِ بشيء من ذلك ، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصاً ، إنما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية وتقفهم على ألفاظها المختارة .

فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة ، ولم يسمها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوقاً فأجراه في شكل قصصى .

وعُمِيَ على كثير من الباحثين في عصرنا ، فظنوها ضرباً من القصص ، وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كبيراً . وهذا حَسْمٌ

لعمل بديع الزمان على معنى لم يقصد إليه ، فكل الذى قصده أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنمقة ، كى يقتندروا على صناعتها ، وحتى يتيح لهم أن يتفوقوا فى كتاباتهم الأدبية .

ووضع ذلك فى صورة قصصية ، يكون فيها حوار محدود ، ويكون فيها ما يشوق ويجذب الناشئة للاطلاع على ما يؤلفه ويصوغه . واختار البطل أديباً شحاذاً ليتم له التشويق .

٣

خصائص وصفات

ليست المقامة إذن قصة وإنما هى حديث أدبى بليغ ، وهى أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة ، فليس فيها من القصة إلا ظاهر فقط ، أما هى فى حقيقتها فحيلة يُطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطّلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة . بل إن الحادثة التى تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هى الغاية ، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذى تُعرض به الحادثة . ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة ، فالمعنى ليس شيئاً مذكوراً ، إنما هو خيط ضئيل تُنشرُّ عليه الغاية التعليمية .

ولعل ذلك ما جعل المقامة منذ ابتكرها بديع الزمان تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساساً . وإنما الأساس العرض الخارجى والحلية اللفظية . وكان لذلك وجه من النفع فإن الأدباء انساقوا إلى الثروة اللفظية ، وأخذوا يبتكرون صوراً جديدة للتعبير ولكن فى حدود سطحية .

وكأنما أجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم ، فلم يتجهوا بالمقامة إلى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا إلى الإفراح للعقل كى يعبر عن العواطف ويحللها ، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية صرفة ؛ إذ كان اللفظ فتنة القوم ، وكان السجع كل ما لفته من جمال فى اللغة وأساليبها ، وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها .

وتقدمَ بديع الزمان فى مقامته فأقام لهم معارض منسقة من ذلك ، وتبعه الحريرى ، وتوسع من خلفهما بالمقامة فأجروها لا فى تعليم الأساليب الأنيقة حسب ، بل أيضاً فى مختلف الشئون الثقافية . فحملوها نَحْوًا وفِقْهًا وطَبًّا ، ووضعوا فيها مناظرات خيالية ، كما وضعوا بها أحياناً جوانب من مجتمعاتهم ؛ ولكنهم لم يفكوا عنها أبداً قيود اللفظ وأسجاعه ، وما رَسَفَتْ فيه من أغلال البديع وأثقال اللغة وألفاظها العويصة ، بل كان ذلك مقياس المهارة والبراعة .

٤

فى الآداب العالمية

عُرِفَت المقامة منذ وقت مبكر فى الأوساط الفارسية ، فقد ألف القاضى حميد الدين أبوبكر بن عمر الباكى ثلاثاً وعشرين مقامة على نسق مقامات الحريرى وأتمها سنة ٥٥١ هـ . وكذلك عرفت فى الأوساط اليهودية والمسيحية الشرقية ، فترجموها وصاغوا على مثالها باللغتين العبرية والسريانية .

أما فى أوربا فنحن نعرف أن عناصر كثيرة من القصص العربى تغلغت هناك منذ أواخر العصر الوسيط وأثناء العصر الحديث ، وخاصة ما كان

موضوعه الرحلات وعجائب المخلوقات . وفي كل يوم يُظهر الباحثون في عصرنا أن الروح العربي والشرق على العموم وجد له هناك منافذ وأبواباً كثيرة لا في الآثار الممتازة حسب ، بل في القصص الشعبي أيضاً .

ومنذ العصور الوسطى والاختلاط قائم بين الشرق والغرب ، بل إنه يتعمق التاريخ منذ عصوره الأولى ، ومن أجل ذلك يكون الزعم بأن المقامة العربية وجدت طريقها إلى الآداب الأوربية ليس زعمًا فائلا ، بحكم أنها جزء من الحركة الأدبية العربية ، وبحكم أنها جزء من هذه المادة الكبيرة التي نُقلت عن العرب إلى أوربا ، فتفاعلت معها ، وأحدثت نهضتها .

وقد كان الاتصال بالآداب الشرقية عربية وفارسية من بدع الحركة الرومانسية كما هو معروف عن فيكتور هيجو في فرنسا وجوته في ألمانيا ويرون وسكوت في إنجلترا . وإذا رجعنا إلى مقامات الحريري وجدنا المستشرقين يُعنون بها ، فتترجم نماذج منها إلى اللاتينية ، وتُترجم إلى الألمانية والإنجليزية . وهذا معناه أنها وضعت تحت أعين القوم ليقروها ويتأثروا بها .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن تأثيرها كان محدوداً ، وخاصة إذا وازنا بينها وبين ألف ليلة وليلة مثلاً ، لأن الأخيرة ذات موضوع قصصي واضح ، ولذلك أقبل عليها الأوروبيون وتأثروا بها تأثراً واسعاً ، وخاصة من نواحيها الخرافية الخيالية . أما المقامات فمن الصعب أن نتبين أثرها ؛ لأن القصة ليست عمادها ، إنما عمادها الأسلوب وما يحمل من زخارف السجع والبديع . ومع ذلك يمكن أن نرى أثرها في بعض القصص الإسباني الذي يصف لنا حياة المشردين والشحاذين . ولعل من الطريف أن لهذا القصص عندهم بطلاً يسمى بيكارون (Picaroon) وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان ، وأبا زيد السروجي عند الحريري .

وليس معنى ذلك أن المقامات أثرت تأثيراً واسعاً في الآداب الأوربية ،
فقد كان تأثيرها ، ولا يزال ، ضعيفاً ، لأنها لا تقوم على سَنَد حقيقي
من القصص ، فلم تتعمق آداب القوم ولم تنفذ إلى أعمالهم كما نفذت ألف ليلة
وليلة .

نشأة المقامة

عند بديع الزمان

١

بديع الزمان

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الملقب بلقب بديع الزمان ،
وُلِدَ في هَمْدَان ، وهي مدينة جبلية في إيران سنة ٣٥٨ للهجرة . وفي رسائله
المطبوعة دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك .
ونراه يقول في أول رسالة له متلطفاً إلى مَنْ راسله : « إني عبد الشيخ ، واسمي
أحمد ، وهَمْدَان المولد ، وتَغْلِب المولد ، ومُضَرَّ المَحْتَد » . فهو
ليس فارسياً كما قد يُظَنُّ ، وإنما هو عربي مُضَرِّي تَغْلَبِي .

وأخذه أبوه بالتعليم والثقيف ، فاختلف إلى دروس العلماء والأدباء في
بلدته ، وتلقَّن على أيديهم ما شحَّد به عقله من دروس دينية ، وأخرى لغوية
وأدبية . وأهمُّ أساتذته الذين خرَّجوه أبو الحسن أحمد بن فارس ،
صاحب كتاب المُجْمَل ، وبينهما مراسلات ، ونراه يقول له في إحدى
رسائله :

لَا تَسْلُمْنِي عَلَى رَكَائِكَ عَقْلِي أَنْ تَيَقِّنْتَ أَنَّي هَمْدَانِي

وما زال يختلف إلى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتمَّ
دروسه ، وأكمل تحصيله من اللغة والشعر والنثر .

ولا يصل إلى السنة الثانية والعشرين من عمره حتى يفكر في الرحلة عن
بلدته ، وفي وصفه لها بقوله :

هَمْدَانُ لِي بَلَدٌ أَقُولُ بِفَضْلِهِ لَكِنَّهُ مِنْ أَقْبَحِ الْبُلْدَانِ
صَبِيحَانُهُ فِي الْقُبْحِ مِثْلُ شَيْوَحِهِ وَشَيْوَحُهُ فِي الْعَقْلِ كَالصَّبِيحَانِ

ما يدل على أنه لم يكن معجبيًا بها . فولَّى وجهه عنها ، وقصد إلى
حضرة صاحب بن عباد في الرِّى ، وكان اسمه طبق الآفاق ، لا لأنه
وزير البويهيين الأوَّل حسب ، بل لأنه أكرم قُصَّاده من الشعراء والأدباء
وأجزل لهم العطاء .

ونزل بديعُ الزمان بساحته ، ومدحه ببعض شعره ، وأعجب به
الصاحب لفصاحته ، وقربه منه ، وأحضره مجالسه ، ورأى فيه مخايل ذكاء
شديد ، إذ كان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية بالأبيات
العربية ، فيجمع بين الإبداع والإسراع . ونراه يتركه إلى جرجان حيث ظلَّ
حِقْبَةً في رعاية أبي سعيد محمد بن منصور . ويظهر أن بعض الناس هناك
أوغروا صدره عليه ، فيمسم خراسان ، واتجه إلى نيسابور .

وفي طريقه إليها خرج عليه لصوص ، فسلبوه كل ما معه ، وصوَّروا نهبهم
له في بعض رسائله ، إذ يقول من رسالة : « كُتِبَ وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهِ إِلَى الشَّيْخِ ،
وَأَذْمُ الدَّهْرَ ، فَمَا تَرَكَ لِي فِضَّةٌ إِلَّا فَضَّتُهَا ^(١) ، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ،
وَلَا عَقَّارًا إِلَّا عَقَّرَهُ ^(٢) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا مَالًا إِلَّا مَالَ إِلَيْهِ ،
وَلَا حَالًا إِلَّا حَالَ عَلَيْهِ ، وَلَا فَرَسًا إِلَّا افْتَرَسَهُ ، وَلَا سَبَدًا ^(٣) إِلَّا اسْتَبَدَّ بِهِ ،
وَلَا لَبَدًا ^(٤) إِلَّا لَبَدَ فِيهِ ، وَلَا بَزَّةً ^(٥) إِلَّا بَزَّهَا ، وَلَا عَارِيَةً إِلَّا ارْتَجَعَهَا ،
وَلَا وَدِيعَةً إِلَّا انْتَزَعَهَا ، وَلَا خَلِيعَةً إِلَّا خَلَعَهَا . وَأَنَا دَاخِلُ نَيْسَابُورَ ، وَلَا حِلِيَّةً
إِلَّا الْجُلْدَةَ ، وَلَا بُرْدَةً إِلَّا الْقَشْرَةَ » .

(١) فضها : أخذها وبديدها . (٢) عقر هنا : استولى على . (٣) السبد : الثوب .

(٤) اللبد : الصوف وفي المثل : ماله سبد ولا لبد ، أى لا قليل ولا كثير .

(٥) البزة : الثياب .

ونزل نيسابور ويقول الثعالبي : إنه ألقى عصاه بها سنة ٣٨٢ للهجرة ، وفيها ناظر أبا بكر الخوارزمي كبير أدباء العصر ومعلميه ، وانتصر عليه في مناظرته ، فطارت شهرته . وألف حيثئذ مقامته وألقاها على التلاميذ ، فأعجبوا بها إعجاباً شديداً .

ويظهر أنه اتصل برؤساء هذه البلدة من بني ميكال ، وأنهم تابعوا عليه كثيراً من يبرهم وفضلهم ، وما زال مرموقاً بأعينهم حتى نقر منهم . وفي رسائله رسالتان توضحان هذه الفترة . وهكذا لم يمتكث بنيسابور أكثر من عام واحد ، فقد فارقتها سنة ٣٨٣ ومضى على غلوائه في الاغتراب يرحل من بلد إلى بلد في خراسان ، حتى إذا نشبت الحرب بين السامانيين أصحاب السلطان بها والغزنويين رأيناه يتركها إلى سجستان ، وهي ولاية كانت بأقصى الشرق من إيران .

وخرج عليه في طريقه لصوص من الأتراك سلبوه ما معه ، وشكا منهم في بعض رسائله ، واستمر حتى نزل عند أمير سجستان خلف بن أحمد (٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) وهو — كما يبدو من وصف بديع الزمان له في رسائله — شخصية ممتازة ، إذ كان أديباً ، وكان مثقفاً . وقد ألف فيه ست مقامات أضافها إلى مقاماته ملحة فيها ونوه بفضله وكرمه ، إلا أنه لم يلبث أن نقر منه . وربما شعر عنده بشيء من التهاون لا يرضاه ، فاستأذنه في الذهاب إلى هراة بأفغانستان .

وكانت هراة تابعة للدولة الغزنوية التي ظهرت حيثئذ ، وربما كان بديع الزمان يريد أن يتصل بالسلطان محمود الغزنوي صاحب الفتوح الكبيرة في الهند وفي إيران ، وأن يصبح من حاشيته أو من كتّابه . ويقول الثعالبي : إنه قدم عليه ، وروى له قصيدة في مديحه يقول فيها :

أفريدونُ في التاجِ أم الإسكندرُ الثاني
أم الرجعةُ قد عادتُ إلينا بسليمانِ

غير أنه لم يلزم حضرته ، بل عاد إلى هراة على كثرة شكواه منها في رسائله . وربما كان السبب في أنه لزمها ، ولم يفارقها ، أنه أصهر فيها إلى رجل يسمى الخششنامي . وأنجب أولاداً واقتنى ضياعاً . وبين رسائله رسائل مختلفة كتب بها إلى والده يذكر له فيها أن له بهراة عقاراً ومزارع ، ويطلب منه أن يرحل إليه هو وإخوته وعمه .

وكل ذلك يدل على أنه عاش في أواخر حياته عيشة ثرية ، بل عيشة كريمة وقد أصبح كعبة القصد ، يقصدون إليه ليشفع لهم عند الأمراء ، يقول : « وهؤلاء الصدور يرون أن الشمس من قبلي تدور » . على أن الدائرة لم تلبث أن دارت عليه ، فلبى نداء ربه وهو لا يزال في الأربعين من عمره ، إذ توفي سنة ٣٩٨ هـ .

• • •

٢

تأليف بدیع الزمان لمقامته

ألف بدیع الزمان مقامته في أثناء نزوله بنيسابور ، ويقال إنه كان يختم بها دروسه على الطلاب ، ولا نعرف شيئاً عما كان يلقيه عليهم من دروس ومحاضرات ، وأكبر الظن أنه كان يحاضرهم في مسائل لغوية ونصوص أدبية . ونظن ظناً أنه كان يعرض عليهم أحاديث ابن دريد الأربعين التي اتجه بها إلى غاية تعليم الناشئة أساليب العرب ولغتهم .

ولأنما نربط بين دروسه وبين أحاديث ابن دريد، لأنها هي التي ألهمته مقامته، يقول الحُصْرِيُّ: إنه « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من يتابع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها إلى الأفكار والضمائر، في معارض عَجَسِيَّة، وألفاظ حُوشِيَّة . . . عارضه بأربعمائة مقامة في الكُدِّيَّة، تدوب ظَرْفًا، وتقطر حسناً » .

وقد رأينا في غير هذا الموضع أن كلمة مقامة معناها حديث، وفي هذا ما يربط أدق الربط بين العاملين، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأملاني لأبي علي القالي، وهو الكتاب الذي يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين .

ولا تدور هذه الأحاديث على الكُدِّيَّة، كما هو الشأن عند بديع الزمان، ومع ذلك فالصلة بين العاملين واضحة . وذلك أن أحاديث ابن دريد تصاغ في شكل رواية وسند يتقدمها، ثم هي غالباً مسجوعة، وتمتلئ باللفظ الغريب . فهي أحاديث ألفت لغرض تعليم الناشئة اللغة، بالضبط كما حاول بديع الزمان في أحاديثه، وإن كانت خفيفة رشيقة .

ويصرح الحُصْرِيُّ بأن بديع الزمان أنشأ أربعمائة مقامة، ومن قبله صرَّح بذلك الثعالبي في اليتيمة، بل صرَّح به بديع الزمان في بعض رسائله . وربما كان ذلك غلطاً من ناسخ الرسائل، فمجرد معارضة بديع الزمان لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضي أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضاً .

ويظهر أنه صنع في نيسابور أربعين مقامة فقط، ثم رأى أن يزيد عليها

مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستاً في مديح خلف بن أحمد في أثناء نزوله عنده ، كما زاد خمساً أخرى . وبذلك أصبحت المقامات نيفاً وخمسين .

على كل حال أنشأ بديع الزمان مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأمالي ويتعقب بديع الزمان في عمله يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعين . وإن المقامة الأسدية عنده لتعد صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأمالي ، وكذلك الشأن في المقامة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفرس فمنها تكميل وتتميم لما جاء في الأمالي من وصف الفرس .

وكثير من الأدعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالاً مباشراً بما في الأمالي . ونفس الحكم والأمثال والوصايا كلّ ذلك نجد صورته واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية ، وأخرى تسمى الوعظية . وليس ذلك حسب ، فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته ونقصد الكدّية أو الشحاذاة استمدّها مباشرة من « خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام » التي رواها صاحب الأمالي عن ابن دريد . ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر ابن دريد في مقامته ، وأنه عارضه بها معارضة . على أنه ليس وحده الذي ألهم البديع مقامته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدّية حديثاً طويلاً وقصّ نوادرهم . وقد احتفظ البيهقي في كتابه المحاسن والمساوي ص ٦٢٢ بفصل طريف من هذا العمل .

ونحن لا نطلع على هذا الفصل حتى نقطع بأن البديع اطلع على هذا العمل للجاحظ ، وأنه هو الذي أوحى إليه أن يُدير أغلب مقاماته على الكدّية . والفصل يبدأ بمحاوراة بين شيخ من أهل الكدّية وشاب منهم حديث العهد بالصناعة ، وقد سأله عن حاله ، فنبّه الكدّية وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار

لصناعته ، وأخذ يتحدث عن شرفها وأن صاحبها في نعيم لا ينفد « فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيناً حلّ ، لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة » . ونراه يذكر له إمام صاحب الكدية بكل بلدة في موسم حصادها يأكل من طبيباتها « فهو رضى الحال ، حسن البال ، لا يغم لأهل ولا مال ، ولا دار ، ولا عقار » . ثم يقص على الشاب أنه دخل بعض بلدان الجبل ووقف في مسجد لها الأعظم وعليه فوطه قد ائتزر بها ، وتعمّم بحبيل من ليف وبيده عكاز ، فنادى في الناس ، فاجتمعوا عليه فقال :

« يا قوم ! رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصة ^(١) من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الركاضة وحرسه الإسلام غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعاً في البحر ، وسبعاً في البر ، وغزوت مع الأرمني . قولوا : رحم الله أبا الحسن ، ومع عمر بن عبيد الله . قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين ، والرزاق بن مذكّر ، وحمدان ابن أبي قتيبة . وآخر ما غزوت مع يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية ، وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسى ، أنا ابن الغزير بن الركان المصيصى المعروف المشهور ، في جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من أسداد الإسلام . نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذراري ، وسبى النساء ، وأخذ لنا ابنان ، وحملوا إلى بلاد الروم . فخرجت هارباً على وجهى ، ومعى كتب من التجار ، فقطعت على ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فإن رأيتم أن تردوا ركننا من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده ؟ .

(١) من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم .

فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت على الدراهم من كل جانب ، وانصرفت ومعى أكثر من مائة درهم . فوثب إليه الشاب وقبّل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن إخوانك خيراً .

ولا يتم هذا الفصل الطريف عند ذلك ، بل يعرض في إسهاب لحيل المُكْنَدِين في استخلاص الأموال والطعام من الناس ، ويروى بعض نوادرهم . وكل من يقرأ هذا الفصل ويقرأ مقامات البديع لا يستطيع أن يجمد أثره فيه .

ومعنى ذلك أننا نظن ظناً أن البديع قد استوحى في عمله ما كتبه الجاحظ وقصّه عن أهل الكدية ، كما استوحى في عمله أيضاً ما كتبه ابن دريد من أحاديثه المعروفة في كتاب الأمالى . فهو قد اطلع على العاملين . ومن غير شك يعلو في التأثير فيه العمل الأول على العمل الثانى ، فابن دريد وجهه ليكتب أحاديث تعليمية أى أنه أثر فيه من جهة الشكل ، أما الجاحظ فأثر فيه من جهة الموضوع ، إذ جعله يدير أحاديثه أو مقاماته على الكدية .

ولا بد أن نضيف إلى عمل الجاحظ عملاً آخر لا يقل أهمية عن عمله ، بل قد يتقدمه ، وهو بروز هذه الطائفة من أصحاب الكدية في عصر البديع ، وكانوا يعرفون حينئذ بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو شخص من بيت ملكى قديم في فارس يقال إن أباه حرمه الملك ، ويقال إنه كان ملكاً ، واغتصب منه الملك داراً ، فهام على وجهه محترقاً للكدية . وهى أسطورة .

واشتهر من هذه الطائفة في عصر البديع شاعران عقد لهما الثعالبى في يتيّمته فصلين طويلين ، وهما : الأخنف العُكْبَرى وأبو دُلْف الخزرجى . أما الأخنف فيقول عنه : « شاعر المُكْنَدِين وظريفهم » ويسوق له قصيدة طويلة صور فيها صناعة الكدية ، وتحدّث عن مصطلحاتها اللفظية وحيل أصحابها حديثاً مفصلاً . وأما أبو دُلْف فيقول فيه : « شاعر كثير الملح

والطُّرْف ، مشحوذ المديّة ، في الكُدِيّة ، خَسَقَ التسعين في الإطراب
والاغتراب ، وركوب الأسفار والصعاب ، وضَرْبَ صفحة الحراب بالجراب ،
في خدمة العلوم والآداب » ويروي له قصيدة عارض بها قصيدة الأحنف في
حرفة الكدية ومصطلحاتها .

وصلة البديع في مقاماته بهذين الشاعرين وتأثره بهما يقوم عليهما أدلة
كثيرة ، فهو في المقامة الأولى يُجَرِّى على لسان أبي الفتح بطل مقاماته هذين
البيتين :

وَيُحَكِّكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ فَلَا يَغْنَثُكَ الْغَرُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَهُ وَلَكِنْ دُرٌّ بِاللَّيَالَى كَمَا تَدُورُ

وهما من شعر أبي دلف الذي رواه الثعالبي في يتيمة . وليس هذا كل
ما نجده من صلة أو تأثر فإن من يقرأ المقامة الرُّصَافِيَّة للبديع يشعر أنه نثر
فيها قصيدتي الأحنف وأبي دلف اللتين صورًا فيهما حيل المكدين . وقد
سمى إحدى مقاماته باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وهي تجرى
على هذا النمط :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلّتنى دمشقَ بعضُ أسفاري ، فبينما
أنا يوماً على باب داري ، إذ طلع عليّ من بني ساسان كَتَبِيَّةٌ قد لفوا
رعوسهم ، وطمَلَوْا بالمَغْرَةِ ^(١) لَبِؤُسَهُمْ ، وتأبَّط كل واحد منهم حجراً
يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يرأسلونه ، ويدعو ويحاجونه ، فلما
رأني قال :

أريد منك رَغِيفاً يعلو خُيُواناً ^(٢) نظيفاً

(١) المغرة : طين أحمر يصنع به .

(٢) الخوان بضم الخاء وكسرها : المائدة قبل وضع الطعام .

أريد ملجأً جريشاً ^(١)	أريد بقللاً قטיפياً ^(٢)
أريد لحمًا غريضاً ^(٣)	أريد خلاً ثقيفاً ^(٤)
أريد جدياً رضيعاً	أريد سخلاً ^(٥) خروفاً
أريد ماءً يشلج	يغشى إناءً طريفاً
أريد دنّ مدام	أقوم عنه نزيفاً ^(٦)
وساقياً مستهشاً	على القلوب خفيفاً
أريد منك قميصاً	وجبةً ونصيفاً ^(٧)
أريد مشطاً وموسى	أريد سطلاً وليفاً
يا حبيذاً أنا ضيفاً	لكم وأنت مضيفاً
رضيتُ منك بهذا	ولم أريد أن أحيفاً ^(٨)

قال عيسى بن هشام : فئلته درهما ، وقلت له : قد آذنتُ بالدعوة ،
وسنعدّ ونستعدّ ، ونجتهد ونجدّ ، ولك علينا الوعد من بعد . وهذا الدرهم
تذكّرة معك ، فخذ المنقود ، وانتظر الموعد ، فأخذه وصار إلى رجل آخر
ظننت أنه يلقاه بمثل ما لقينى ، فقال :

يا فاضلاً قد تبدّى كأنه الغصنُ قدّأ

(١) الجريش من الملح : الخشن .

(٢) البقل : ما ينبت أوراقاً بلا ساق ، والقטיפ : المقطوف .

(٣) الغريض : الطرى ، وهو الطازج .

(٤) الثقيف : الحامض .

(٥) السخل : ولد الضأن .

(٦) النزيف : السكران .

(٧) النصيف : الهامة .

(٨) أحيف : أظلم .

قد اشتَهَى اللحمَ ضِرْمِي فاجْلِدْهُ بالخُبْزِ جِلْدًا
وامْسُنْ عَلَى بَشِيءٍ واجْعَلْهُ للوقتِ نَقْدًا
أُطْلِقْ من اليدِ خَصْرًا^(١) واحْلُلْ من الكيسِ عَقْدًا
واضْمُمْ يديكَ لأَجْلِي إلى جناحِكَ^(٢) عَمْدًا

قال عيسى بن هشام : فلما فتق سمعى منه هذا الكلام علمت أن وراءه فضلاً ، فتبعته ، حتى صار إلى أمّ مشواه^(٣) ، ووقفت منه بحيث لا يرانى وأراه ، وأماط السادة لُثْمَهُمْ ، فإذا زعيمهم أبو الفتح الإسكندرى ، فنظرت إليه وقلت : ما هذه الحيلة ويحك ؟ ! فأنشأ يقول :

هذا الزمان مَشُومٌ^(٤) كما تراه غَشُومٌ
الحُمْتُ فيه مَلِيحٌ والعقلُ عيبٌ ولُومٌ
والمال طَيْفٌ ولكن حول اللئام يحومُ

وواضح أن المقامة تعبيرٌ عن هذه الطائفة الساسانية . ووصفٌ من بعض الوجوه لِحَيْلِهِمْ ، وفيها نرى أبا الفتح الإسكندرى بطل المقامات ساسانيّ كبير ، وهو كذلك في أكثر المقامات أديب شجاع عظيم .

ولا يختلف باحث في أن هذا البطل من خيال بديع الزمان ، فلم يسبقه باسمه أحد ، وإنما هو الذى وضعه لمقاماته . فهو يجرى في أكثرها ، وإنما نقول أكثرها ، لأن هناك مقامات لم يرد ذكره فيها مثل المقامة الغيلانية والبغدادية . وهناك مقامات لا يظهر فيها أبو الفتح إلا في آخرها كالمقامة الإبليسية . ولكن الكثرة يتضح فيها منذ أول الأمر .

(١) أطلق من اليد خصراً : كناية عن إجابة الغير .

(٢) اضم يدك إلى جناحك : كناية عن إيداء اليد إلى موضع النقد .

(٣) أم مشواه : صاحبة منزله .

(٤) مشوم : مشتم ، وخفف .

وكما أن شخصية أبي الفتح بطل المقامات خيالية فكذلك شخصية الراوى عيسى بن هشام ، فهما جميعاً من صنع البديع واقتراحه . وهو يبدأ كل مقامة بهذه الصيغة الثابتة : « حدثني عيسى بن هشام ، قال » وهي تدل دلالة قاطعة على أنه حين حاول تأليف هذه المقامات كان في ذهنه أن يقلد طريقة الرواة بل بعبارة أدق كان في ذهنه أن يقلد طريقة ابن دريد في أحاديثه .

فابن دريد يبدأ أحاديثه دائماً بالسند ، وفي نص الحصرى السابق ما يشير إلى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه ، ومعنى ذلك أن سندها أيضاً من مقترحه ، وكأن ابن الكلبي وغيره ممن يسند إليهم أحاديثه ليسوا أكثر من رمز إلى سنة الرواة . أما في حقيقة الأمر فلا رواية ولا راو ، وإنما هي أحاديث من عمل ابن دريد ومن نسج خياله .

وقلده في ذلك البديع ، ولكنه لم يُجر أحاديثه أو مقاماته في سند مكذوب على شاكلة الأسانيد اللغوية والتاريخية المكذوبة ، إنما أجراها في سنده الخاص الذى أنشأه لنفسه إنشاءً ، واخترعه اختراعاً .

٣

الموضوع

موضوع المقامة عند بديع الزمان ليس واحداً ، حقاً أكثر المقامات موضوعها الكدبة والاستجداء ؛ إذ يظهر أبو الفتح الإسكندري في شكل أديب شحاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب ، ويحتال بهذا البيان على استخراج الدراهم من جيوبهم .

وهو يتراءى بهذه الصورة في بلدان مختلفة ، وأعل هذا ما دفع بديع الزمان إلى أن يسمى المقامات بأسماء البلدان ، ومعظمها بلدان فارسية . وقد

يترك ذلك ويسمى المقامة باسم الحيوان الذي يصفه كالأسدية ، أو باسم الأكلة التي يُلم بها أبو الفتح كالمَضِيرية نسبة إلى أكلة المَضِيرية . وأحياناً يسميها باسم الموضوع الذي يعرض له كالأوعظية ؛ لأنها تدور حول وعظ ، والقريضية لأنها تدور حول القريض والشعر ، والإبليسية لأنها تتصل بإبليس ، والملوكية لأنها تتصل بملك هو خلف بن أحمد ، وهكذا .

ومعنى ذلك أن بديع الزمان لم يصطلح في تسمية مقاماته على سنة واحدة . ولعل هذا نفسه يشير إلى أن موضوعاتها تختلف ، فهي كما قلنا لا تجرى كلها في الكُدِيّة ، بل تذهب مذاهب شتى ، تتحد فيها الغاية ، وهي رصف العبارات الأدبية المنمقة .

وكان الشكل القَصَصِيّ ليس هدفها ، فهي إنما تتخذة خيطاً ينسج حوله هذا الوشي من الأساليب المسجوعة . ومن هنا لم يعين البديع لنفسه فيها خطة مرسومة ، ومن ثَمَّ اختلفت الموضوعات .

ولعل أول ما يسترعى النظر من ذلك [مقاماته الست التي كتبها ليُشيد فيها بخلف بن أحمد صاحب سجستان فإنه لم يجعل موضوعها الكدية ، وإنما نحا بها نحو مدحه . ففي المقامة الملوكية مثلاً نجد عيسى بن هشام يلتقي بأبي الفتح ، فيسأله عن أكرم الملوك ، فيقول عيسى :

« فذكرت ملوك الشام ومَن بها من الكرام ، وملوك العراق ومَن بها من الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقت الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت ، وحدثته بعوارف ملوك اليمن ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الحملة ، بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

يا ساريّاً بنجُوم الليل يمدحها ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطراً
وواصفاً للسواق هيك لم تَزُرْ بحر المحيط ألم تعرف له خبَراً ؟
مَن أبصر الدُرَّ لم يعدلْ به حجراً ومَن رأى خَلَقاً لم يذكر البَشَراً
المقامة

زُرُهُ تُزَرُّ مُلْكًا يَعْطَى بِأَرْبَعَةٍ ^(١) لَمْ يَسْجَوْهَا أَحَدٌ^٢ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَسْرَى
 أَيَّامُهُ غُرُرًا وَوَجْهُهُ قَمَرًا^(٣) وَعِزُّهُ قَدَرًا وَسَيْبُهُ^(٤) مَطَرًا
 مَا زِلْتُ أَمْدَحُ أَقْوَامًا أَظْنَهُمْ صَفَوُ الزَّمَانِ فَكَانُوا عِنْدَهُ كَدَرًا

قال عيسى بن هشام : فقلت : مَنْ هذا الملك الرحيم الكريم ؟ فقال :
 كيف يكون ، ما لم تَسْلُغْهُ الظنون ؟ وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ؟ ومتى
 كان ملك يأنف ^(٣) الأكارم ، إن بعثت بالدرهم ، والذهب ، أيسر
 ما يهسب ، والألف ، لا يعمه إلا الخسف ^(٤) ، وهذا جبل الكُحْل قد
 أضرَّ به الميل ^(٥) ، فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل ؟ وهل ^(٦) يجوز أن
 يكون ملك يرجع من البذل إلى سرفه ، ومن الخلق إلى شرفه ، ومن الدين
 إلى كسفه ، ومن الملك إلى كنفه ، ومن الأصل إلى سلفه ، ومن النسب إلى
 خلفه ؟ !

فليت شعري مَنْ هَذِي مَآثِرُهُ ماذا الذي ببلوغ النجم يَسْتَبْطِرُهُ
 وهذا مدح ظاهر ، فالمقامة لم تتعرض لكُدْيَةٍ ، وإنما تعرضت لهذا المدح
 الذي يدل دلالة بَيِّنَةٌ على أن النثر أخذ يزاحم الشعر ، فلهذا داني فيها بصوغ
 المدح نثرًا . وكنا نعرف حتى عصر البديع أن الشعر لسانُ المديح ، وأن
 المادحين لا يتكلمون بغيره . واليوم انقلبت الآية ، فقد أصبح المدح يقال
 نثرًا كما يقال شعرًا . وبذلك انعدمت الحواجز التي كانت تفصل بين عالمي

(١) يريد الأربعة التي سجد كرها في البيت التالي .

(٢) السيب : العطاء .

(٣) يأنفه : يضرب أنفه ، يريد أن مدحوه يضرب الكرماء على أنوفهم حين يبعثون بدراهمهم أي أنه يفوقهم كرمًا .

(٤) الخلف : الفأس ، يريد أنه يتلف الألف ، أي أنه كريم جداً .

(٥) الميل : المرود يكتحل به ، يقول إن الميل على قلة ما يأخذ يضر بالجل فكيف بكرم

مدحوه وما يؤخذ منه .

(٦) الاستفهام إنكارى أي أن كل ملك بهذه الصفات لا يستطيع أن يبلغ مبلغه .

النثر والشعر ، فالنثر يطرق موضوعات الشعر ، والشعر يطرق موضوعات النثر على نحو ما هو معروف في الشعر التعليمي .

وبجانب هذا الموضوع ، موضوع المديح ، نجد موضوعاً آخر ، بل موضوعات أخرى ، وهي ليست من موضوعات الشعر كالموضوع السابق، وإنما هي من موضوعات النثر ، غير أنها ليست كندية فهي لا تجرى مع الموضوع العام . فمن ذلك أننا نجد مقامات تتخذ النقد الأدبي موضوعاً لها ، مثل المقامة العراقية والشعرية والقريضية . فهذه المقامات الثلاث يعرض فيها بديع الزمان لأحكام أدبية تتصل بالشعر والشعراء ، وبجانبها مقامة تسمى الجاحظية ، وفيها نرى البديع يقول على لسان أبي الفتح وقد حضر مأدبة ، وعرض الحاضرون لفصاحة الجاحظ ولأسننه :

« يا قوم : لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم . . . إن الجاحظ في أحد شِقَيْهِ البلاغة يَقْطِفُ^(١) ، وفي الآخر يقف ، والبلغ مَنْ لَمْ يَقْصِرْ نظمته عن نثره ، ولم يُزِرْ كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا لا ، قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقادٌ لعُريان الكلام يستعمله ، نَفْسُورٌ من مُعْتَصِصِهِ يُهْمَلُهُ ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ »

وهذا حكم أدبي دقيق على الجاحظ يدل على أن البديع قرأه وفهمه ، وعرفه معرفة صحيحة ، وإن كنا لا نتفق معه فيه وفي تفاصيله ، فالجاحظ لا يلام بأنه لا يقول الشعر . أما أنه يستعمل عُريان الكلام وينفر من الاستعارات والكلمات العويصة ، فذلك حقه . ولعل أدبه بهذه الخصائص نفسها يفوق أدب البديع ومعاصريه . ونحن لا نستطيع بحال أن نقبل من البديع هذه الاستهانة بالجاحظ على أساس أنه ليس عنده ألفاظ مصنوعة ولا كلمات غير

(١) يقطف : يسير ببطء ، يريد أنه ناثر لا شاعر .

مسموعة ، فليس هذا عنوان التفوق الأدبي ، إنما هذا أسلوب البديع ومعاصريه ، وبه كانوا يقيسون البلغاء والبلاغة .

ومن الموضوعات في مقامة البديع موضوع الوعظ الديني ، فقد كتب فيه مقامتين هما المقامة الأهوازية والمقامة الوعظية ، ويسترسل في الأخيرة على هذا النحو :

« أيها الناس ! إنكم لم تُشْرِكُوا سُدَّيْ ، وإن مع اليوم غداً ، وإنكم واردوا هُوءَةً ^(١) ، فأعدوا لها ما استطعتم من قوَّة ، وإن بعد المعاش معاداً ، فأعدوا له زاداً ، ألا لا عُدْر ، فقد بُيِّنَتْ لكم المحجَّة ، وأُخِذَتْ عليكم الحُجَّة ، من السماء بالخبر ، ومن الأرض بالعبر ، ألا وإن الذي بدأ الخلقَ عليماً ، يحيي العظام رميمًا ، ألا وإن الدنيا دارُ جَهَاز ، وقنطرة جَوَاز ، من عبرها سَلِم ، ومن عمَّرها ندم . »

والبديع في هذا الجانب الديني نراه ضد الملحدين ، بل نراه يأخذ جانب أهل السنة ويشنُّ حرباً شعواء على خصومهم من المعتزلة . ومقامته المارستانية تصور هذا الجانب فيه تصويراً دقيقاً ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندري نازلاً في مارستان ، ويزوره عيسى بن هشام مع أبي داود العسكري المتكلم ، فسرعان ما يعرفه أبو الفتح ، ويورد على مسمعه نقداً شديداً للمعتزلة وآرائهم .

واعلم في هذا كله ما يشهد بأن البديع حَمَلْ مقامته كثيراً من الجوانب التعليمية ، وهناك مقامة تسمى المقامة العلمية ، وفيها نراه يصف لطالب العلم طريقه الصعب ، وما ينبغي أن يستعين به عليه حتى يحصل على مرامه منه ، فلا بد له من الدأب والحفظ والدرس والفهم والتحقيق والتعليق ، حتى يفتق سمعه ، وحتى يتغلغل العلم إلى صدره .

ويمكن أن نسلك في هذا الجانب التعليمي المقامة الأسدية التي جمع فيها كل ما استطاع من أوصاف للأسد ، والمقامة الحمدانية ، وهي تصف

منظراً حدث في حياة سيف الدولة المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، وفيها يعرض علينا أبو الفتح أوصافاً مختلفة للفرس ، وكأنه ينشد متناً لغويّاً فيه وفي شِيباته . ونضع في هذا الاتجاه أيضاً المقامة الغيلانية التي يظهر فيها الشاعر الأموي ذو الرّمة وينشد بعض شعره .

والمقامتان الأخيرتان تلفتاننا إلى أن المقامات الهمدانية قد تعرض لصور من الحياة الماضية ، ومثلها المقامة الصيمرية التي تتحدث عن محمد بن إسحق الصيمري المتوفى سنة ٢٧٥ للهجرة .

ولكن ينبغي أن لا نفهم من ذلك أن البديع كان يعنى بالماضي أكثر مما يعنى بالحاضر ، فقد وصف في مقاماته كثيراً من وجوه الحياة في عصره على نحو ما نرى في المقامة البغدادية وهي تصور الحياة في بغداد لعصره . وقد أعطانا في المقامة النيسابورية صورة دقيقة لفساد القضاء والقضاة في زمنه ، إذ نراه يذكر على لسان عيسى بن هشام أنه صلى الجمعة بنيسابور ، فلما قضاها مرّ به شخص ، فسأل عنه من بجانبه ، إذ رآه يلبس قلنسوة القضاة ، فقال له :

« هذا سُوسٌ لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجَرَادٌ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصٌّ لا يَنْقُبُ إلا خزانة الأوقاف » ، وكردى لا يُغير إلا على الضعاف ، وذئبٌ لا يَفْتَرِسُ عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحاربٌ لا يَنْهَبُ مالَ الله إلا بين العهود والشهود . وقد لَبِسَ دَنِيَّةً (١) وخلع دينيَّته ، وسوّى طيلسانه (٢) ، وحَرَّفَ يده ولسانه ، وقصّر سِباله (٣) ، وأطال حباله . . . وبَيَّضَ لحيته ، وسوّدَ صُحيفته ، وأظهر ورعه ، وسترَ طَمَعَه . »

(١) الدنية : قلنسوة القاضي .

(٢) الطيلسان : كساء يوضع على الرأس ويسبل على الكتفين .

(٣) السبال : الشارب .

وليس فوق هذا بيان لظلم قاض وطغيانه وفساد ضميره ، فهو ممن يأكلون أموال الناس بالباطل ، يأكل مال الوقف واليتيم ، ويمضغ حق الضعيف والفقير ، لا يخشى إلا ولا ذمة .

وهي صورة سيئة للقضاء في عصره . وتتخلل المقامات صور مختلفة عن حياة الناس المعاصرين له وأطعمتهم وأكسيتاتهم ، وخمرهم ولهوهم وسلوكهم ونفاقهم . وكل ذلك شاهد ناطق بأن مقامات البديع تمثل حياة المجتمع لعصره خير تمثيل .

على أن هناك مقامة ينبغي أن نقف عندها ، لا لأنها تعبر عن العصر أو ما قبل العصر ، ولكن لأنها أوحى لبعض الأدباء بأعمال باهرة ، وهي المقامة الإبليسية ، وهي تدور على لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلّت منه إبل ، فخرج في طلبها ، وما زال يطلبها حتى حلّ في واد خضير ، به أنهار وأشجار وأزهار ، وشيخ جالس فسلم عليه ، وردّ السلام ، وأمره بالجلوس ، فامتل ، وسأله : هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم وأنشده لامرئ القيس وأبيد وطرفة ، فلم يطرب لشيء من ذلك ، وعرض عليه أن ينشده من شعره ، فأنشده قصيدة لجرير .

فعجب عيسى بن هشام من انتحاله قصيدة جرير ، وبعد حوار قصير بينهما قال له إبليس : « ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرة » وغاب بعد هذا الكلام ، ووجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً .

ولاريب في أن هذه المقامة الطريفة هي التي أوحى لابن شهيد في الأندلس أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطبيعة ، وهي الرحلة المعروفة باسم « التوابع والزوابع » ويقصد بها الجن والشياطين إذ تراءى له شيطان ، وقد أرّج عليه في شعر ينظمه ، فأجازه ، وتعارفا ، فطلب إليه ابن شهيد أن يلقي شياطين الشعراء والكتاب السابقين معه ، فحمله على جناحه ، ونزل به

وادی الجن ، حيث نقيهم . وكان كلما لقي شيطاناً لشاعر مشهور أنشده من شعر صاحبه ، ثم من شعره الخاص ، فيعجب به ، ويحيزه اعترافاً بمهارته الفنية وقدرته البلاغية . ولقي شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء وعرض عليهم بعض رسائله ، وخاصة رسالته في الحلواء . وهو يتأثر فيها المقامة المصيرية لبديع الزمان ، ولا نلبث أن نراه يلتقي بشيطانه المسمى زُبدة الحقب ، ويحاول أن يُجسّاريه في بعض أوصافه التي جاءت في المقامات . وما يزال به حتى يعلن له تفوقه وإحسانه ، ويحيزه على إبداعه وافتتانه .

وواضح ما بين العاملين من صلة شديدة ، فهما جميعاً يدوران على لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا في وادی الجن . ويصرح ابن شهيد بلقائه لشيطان بديع الزمان ، ويعرض علينا صاحبه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن يحتذى على مثاله . وكل ذلك يثبت إثباتاً قاطعاً أن ابن شهيد في رحلة « التوابع والزوابع » إنما عارض البديع في مقامته الإبلسية .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الذي ألهم أبا العلاء « رسالة الغفران » هو ابن شهيد في رحلته المذكورة ، لأنها هي الأخرى رحلة فيا وراء الطبيعة ، إلا أنها ليست في واد من وديان الجن ، وإنما هي في الجنة وعلى الصراط ويوم البعث . ولكنها على كل حال رحلة فيا وراء المشاهد المحسوس .

ويزعم آخرون أن ابن شهيد هو الذي استوحى رسالة الغفران رحلته ، وأعل في هذا الرأي الذي قدمناه ما يبطل نزاع هؤلاء المتخاصمين ، فالمسألة تُرد إلى القرن الرابع وإلى بديع الزمان ، فهو الذي استغل أولاً فكرة شياطين الشعراء التي قرأها في كتب الأدب العربي ، واستخرج منها مقامته الإبلسية . ثم خلفه ابن شهيد وأبو العلاء في القرن الخامس ، فألّف كل منهما رحلة فيا وراء عالمنا ، واستمد ابن شهيد مباشرة من البديع ومقامته ، فلم يدخل إلا تغييرات قليلة ، وتعديلات طفيفة .

الأسلوب

أول ما يسلّفت القارئ في مقامة البديع أنها وضعت في شكل حوار قصصى ، وهو حوار يمتدُّ بين عيسى بن هشام الراوى وأبى الفتح الإسكندرى البطل ، أو الأديب المحتال الذى يعرف كيف يلعب بعقول الناس ، ويستخرج منهم الدراهم عن طريق خيالاته وفصاحته .

والحوار يأتي على الهامش ، فالقصد الأول في مقامة البديع إنما هو الإتيان بمجاميع من الألفاظ والأساليب التى تغلب السامعين وتخرق بروعتها حجاب قلوبهم . فليس للبديع غاية قصصية بالمعنى الدقيق ، وإنما غايته أن يصوغ ألفاظاً ، أو قل أنغاماً من الكلام ويصبغها بالألوان الفنية التى كانت معروفة في عصره .

ومن أجل ذلك اختار صيغة السجع لمقاماته ، وكانت هى الصيغة التى يعجب بها عصره ، أعجب بها عند ابن العميد في رسائله ، كما أعجب بها عند غيره من تلاميذه ، فكان لا بد للبديع كى ينال استحسان معاصريه من أن يعتمد اعتماداً على هذه الوسيلة ، ويستخدمها في كل ما ينمق من مقاماته ويوشى من أحاديثه .

وهو يُظهر براعة فائقة في استخدامها ، حقاً إنه لا يلتزمها دائماً ، ولكنه يحنح إليها غالباً ، فالأصل عنده أن يسجع ، ولا يترك السجع إلا نادراً . وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة ، وبديهة حاضرة ، وذكاء حاد ، وإحساس دقيق باللغة ومترادفات وأبنيته واستعمالاتها المختلفة .

فما هى إلا أن يتوجه إلى الكلام ، حتى تنهال عليه الألفاظ من كل جهة ،

كأنها السيول تفيض من كل صوب . وكان يعرف كيف يُفيد من هذه السيول ، فهو يضع الكلمات مواضعها في دقة وبراعة منقطعة النظير .

ومن هنا كان سجعته في جملته خفيفاً رشيقيّاً ، فليس فيه تكلف ، وليس فيه صعوبة ولا جفاء فهو دائماً كأنما يستمد من فَيَضُّ لغوى لا ينفد . وتراه إزاء المعنى ، وكأنه الصائد الماهر الذى يحسن إلقاء شبابه على صيده ، فلا يخطئه ، بل يصيبه دائماً ، ويخيل إليك كأنه يجمع نفسه جمعاً إزاء الكلمات اللغوية ، فإذا هو قد أحصاها إحصاء ، وإذا هو يحى بما يوافقه ويريده منها وكأنه يمسك بزمامه .

فليس هناك معنى يعسر على البديع التعبير عنه ، وليست هناك كلمات تختفى منه وراء حواجز اللغة ومتشابهاتها ، بل الكلمات تقبل عليه من كل جانب ليختار منها ما يريد له هواه ، وما تريد له حاسته اللغوية الدقيقة .

وهذا كله يدل من جهة على محصول لغوى واسع ؛ كما يدل على ذوق بديع ، يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة ، وكيف يضعها في مواضعها ، فلا نبوء ولا شذوذ ، بل دائماً دقة وضبط وإحكام في عذوبة وسلاسة وتناسق وانسجام .

وهو يسمح على ذلك بروح فكاهية بديعة تتخلل مقاماته ، فتجعلها أكثر قبولاً لدى النفوس ، ويظهر أن البديع كان ينطوى على مَرَحٍ في داخله ، فسكبه في مقاماته . وهو يتخذ صوراً مختلفة . وقد تمضى المقامة وكلها دُعاة وفكاهة . ونحن نسوق للقارئ مقاماته « المَضِيرَة » نسبة إلى المَضِيرَة (وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض) ليطلع منها على جملة خصائصه وما يطبع به أساليبه من مهارة . قال :

« حَدَّثَنَا عيسى بن هشام ، قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الإسكندرى رجلُ الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، فقدّمت إلينا مَضِيرَة ، تُثْنَى على الحضارة ،

وتخرج في الغضارة^(١) وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية - رحمه الله - بالإمامة^(٢) ، في قصعة يزل^(٣) عنها الطَّرف ، ويموج فيها الطَّرف . فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنها وصاحبها ويمقتها وأكلها ، ويشلبيها وطاقنها ، وطننها يمزح فإذا الأمر بالصد ، وإذا المزاح عيّن الجِد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان . ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمّظت لها الشفاه ، واتقّدت لها الأكباد ، ومضى في إثرها الفؤاد ، ولكننا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتي معها أطول من مصيبي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المَقْت ، وإضاعة الوقت ، قلنا هات ، قال :

دعاني بعض التجار إلى مَضيرة ، وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم^(٤) ، إلى أن أجبته إليها ، وقمنا ، فجعل طول الطريق يُشني على زوجته ، ويفدّيها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طَبْخِها ، ويقول : يا مولاي لو رأيتها ، والخيرقة في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التنور^(٥) إلى القدور^(٦) ، ومن القدور إلى التنور ، تَسْفُتُ بفيتها النار ، وتدُقُّ بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّر^(٧) في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصّقل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقتني ؛ ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليّته وأن يتسعد بظعينته^(٨) ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لحيا^(٩) ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها^(١٠)

(١) الغضارة : القصعة الكبيرة .

(٢) يشير إلى ما يروى من أن معاوية كان نهماً أكلوا . (٣) يزل : ينزلق .

(٤) أصحاب الرقيم : أهل الكهف وقصتهم مشهورة ، وفيها كلهم لا يفارقهم .

(٥) التنور : ما يخبز فيه . (٦) القدور : جمع قدر ، وهو الإناء يطبخ فيه .

(٧) غبر : أثر . (٨) الظعينة : الحليلة ، وهي الزوجة .

(٩) ابن العم لحا : أقرب أبناء العم . (١٠) الأرومة : الأصل .

أرومتي ، لكنها أوسع مني خُلُقًا ، وأحسن خَلْقًا ، وصَدَّعَنِي بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلَّته ^(١) ، ثم قال :

يا مولاي ! ترى هذه المحلَّة ! هي أشرف محالٍّ بغداد ، يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغايرو ^(٢) الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار . وداري الواسطة ^(٣) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدَّر يا مولاي أنفق على كل دار منها ؟ قلَّه تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً ، قلت : الكثير ، فقال : ياسبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ، وتنفَّس الصَّعداء ، وقال : سبحان من يعلم الأشياء . وانتهينا إلى باب داره فقال : هذه داري كم تقدَّر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة ^(٤) ! أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ^(٥) ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرايت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصَّنعة فيها ، وتأمَّل حُسْنَ تعريجها ، فكأنما خُطَّ بالبركار ^(٦) ، وانظر إلى حِدْق النجَّار ، في صنعة هذا الباب اتخذه من كم ^(٧) ، قلُّ : ومن أين أعلم ؟ هو ساج ^(٨) من قطعة واحدة لا مأروض ولا عَفِن ، إذا حرَّك أن ، وإذا نُقِر طَن ، مَن اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى وهو والله رجلٌ نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل ، لله دَرُّ ذلك الرجل ، بحياقي لا استعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ^(٩) تَراها اشتريتها في سوق ^(١٠) الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير مُعزِيَّة ^(١١) كم فيها يا سيدى من الشَّبَه ^(١٢) ! فيها ستة أرتال ، وهي تدور بلولب في الباب بالله

(١) المحلَّة : الحى . (٢) يتغايرو الكبار : يفار بعضهم من بعض .

(٣) الواسطة : الجوهرة الكبيرة في العقد . (٤) الطاقة : الشباك . (٥) يريد أنه أنفق عليها ما جر عليه الفقر والفاقة . (٦) البركار (البرجل) : آلة لرسم الدوائر والأقواس . (٧) يريد : من كم لوح أو قطعة . (٨) الساج : شجر جيد .

(٩) يريد حلقة الباب . (١٠) سوق الطرائف : سوق كانت ببغداد تباع فيها النفائس .

(١١) معزية : كاملة ، وبذلك اشتهرت دنانير المعز بالله الفاطمى صاحب مصر ، إذ كانت أنقل من غيرها في الوزن . (١٢) الشبه : النحاس .

دَوْرَهَا ، ثُمَّ انْتَقَرَهَا وَأَبْصَرَهَا ، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لَا اشْتَرَيْتَ الْحَلَّتَى إِلَّا مِنْهُ ،
فَلَيْسَ بِبَيْعٍ إِلَّا الْأَعْلَاقُ^(١) . ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلْنَا الدَّهْلِيْزَ ، وَقَالَ : عَمَّرَكَ
اللَّهُ يَا دَارَ ، وَلَا خَرَّ بَكَ يَا جِدَارَ ، فَمَا أَمِنَ حَيْطَانُكَ ، وَأَوْثَقَ بَنِيَانُكَ ،
وَأَقْوَى أَسَاسُكَ ! تَأَمَّلْ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا^(٢) ، وَتَبَيَّنْ دَوَاحِلَهَا وَخَوَارِجَهَا ، وَسَاقِنِي
كَيْفَ حَصَلَتْهَا ، وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلَتْهَا ، حَتَّى عَقَدْتُهَا^(٣) ؟ كَانَ لِي جَارٌ
يُكْنَى أَبُو سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ الْمَحَلَّةَ وَلَهُ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَسْعَى الْخَزَنُ ، وَمِنْ
الصَّامِتِ^(٤) مَا لَا يَحْصِرُهُ الْوَزَنُ ، مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَخَلَّفَ خَلْفًا أَتْلَفَهُ
بَيْنَ الْحَمْرِ وَالزَّمْرِ ، وَمَزَّقَهُ بَيْنَ النَّرْدِ وَالْقَسَمْرِ^(٥) ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوْقَهُ قَائِدُ
الْاضْطِرَارِّ ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ فِيْبَيْعِهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجَرِ ، أَوْ يَجْعَلَهَا عَرْضَةً لِلْخَطَرِ ،
ثُمَّ أَرَاهَا ، وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا ، فَأَنْقَطَعَ عَلَيْهَا حَسِرَاتِي ، إِلَى يَوْمِ الْمَمَاتِ ،
فَعَمِدْتُ إِلَى أَثْوَابٍ لَا تَنْصُزُ^(٦) تِجَارَتِهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ ، وَعَرْضْتُهَا عَلَيْهِ ،
وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا نَسِيئَةً^(٧) ، وَالْمُدْبِرُ يَحْسِبُ النَّسِيئَةَ عَطِيَّةً ،
وَالْمُتَخَلِّفُ يَعْقِدُهَا هَدِيَّةً ، وَسَأَلْتُهُ وَثِيْقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي ، ثُمَّ
تَغَافَلَتْ عَنْ اقْتِضَائِهِ^(٨) حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرْقُ فَأْتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ ،
وَاسْتَمَهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ^(٩) ، وَالتَّمَسَّ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ
دَارَهُ رَهِيْنَةً لَدِي ، وَوَثِيْقَةً فِي يَدِي ، فَفَعَلَ ثُمَّ دَرَجْتَهُ^(١٠) بِالْمَعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا
حَتَّى حَصَلْتُ لِي بِجِدِّ صَاعِدٍ^(١١) ، وَبَخْتٍ مُسَاعِدٍ ، وَقُوَّةٍ مُسَاعِدٍ ، وَرُبِّ
سَاعٍ لِقَاعِدٍ ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْدُودٌ^(١٢) ، فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مُحْدُودٌ ، وَحَسْبُكَ
يَا مُوَلَايَ أَنِّي كُنْتُ مِنْذُ لَيَالٍ نَائِمًا فِي الْبَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ قُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ ،

-
- (١) الْأَعْلَاقُ : النَّفَاسُ . (٢) مَعَارِجُهَا : سَلَامُهَا . (٣) عَقَدْتُهَا : مَلَكَتُهَا
وَاقْتَنَيْتُهَا . (٤) الصَّامِتُ : الْمَالُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . (٥) النَّرْدُ : لَبَّةُ الطَّوَالَةِ ،
وَالْقَسَمَرُ : الْقَهَارُ . (٦) تَنْصُزُ : تَنْفَقُ . (٧) النَّسِيئَةُ : الْبَيْعُ الْمُؤَجَّلُ .
(٨) اقْتِضَائِهِ : مَطَالِبَتُهُ بِالْأَدَيْنِ وَمِقَاضَاتِهِ . (٩) أَنْظَرْتُهُ : أَمَهَلْتُهُ .
(١٠) دَرَجَهُ : خَدَعَهُ بِالتَّدْرِيجِ . (١١) جَدُّ صَاعِدٍ : حَظُّ صَاعِدٍ إِلَى السَّمَاءِ .
(١٢) مُجْدُودٌ : مَحْظُوظٌ .

فقلت : من الطارق المُستتاب^(١) ؟ فإذا امرأة معها عقدُ لآل ، في جلدته^(٢) ماء ورقته آل^(٣) ، تعرضه للبيع فأخذته منها إخذةً خلس^(٤) ، واشترته بشمنٍ بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربحٌ وافر ، بعون الله تعالى ودولتك . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدتي في التجارة ، والسعادة تُنبط^(٥) الماء من الحجارة ، الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ! اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أخرج من دور آل^(٦) الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والذهر حُبلى ليس يُدرى ما يلد ، ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق^(٧) ، وهذا يُعرض في الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في النادر^(٨) . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصري فهو عمله وله ابنٌ يخلقه الآن في حانوته ، لا توجد أغلاق الحُصُر إلا عنده ، فبحياتي لا اشتريت الحُصُر إلا من دُكتانه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سباً من تحرّم^(٩) بيعخوانه . ونعود إلى حديث المَضيّة ، فقد جان وقت الظهيرة ، يا غلام ! الطسّست والماء . فقلت : الله أكبر ربما قرّب الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدّم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ! إنه روى الأصل عراقى النشء ، تقدّم يا غلام واحسّر^(١٠) عن رأسك ، وشحّر عن ساقك ، وانض^(١١) عن ذراعك ، واقتّر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو العباس ، من النخّاس .

(١) المنتاب : الذى يأتى مرة بعد مرة . (٢) يريد أن اللآلى تشبه الماء في صفاتها .

(٣) آل : السراب . (٤) خلس : اختلاس . (٥) تنبط : تخرج .

(٦) آل الفرات من أعيان بغداد ، تولى واحد منهم وزارة المقتدر في أوائل القرن الرابع

للهجرة ، ونكبه وصادر أمواله . وإلى ذلك يشير بديع الزمان .

(٧) باب الطاق : من أبواب بغداد . (٨) الندر : النذرة . (٩) تحرّم :

أصبح له حرمة . (١٠) احسر : اكشف . (١١) انض : انزع ثوبك عنه .

ضع الطَّسْتُ وهات الإبريق . فوضعه الغلام وأخذته التاجر وقلَّبه وأدار فيه النظر ثم نَقَرَه ، فقال ، انظر إلى هذا الشَّيْء كأنه جذوة الذهب ، أو قطعة من الذهب ، شَبَّهُ الشام ، وصنعة العراق ليس من خُلُقَان^(١) الأعلاق ، قد عرفت دور الملوك ودارها^(٢) ، تأمَّلْ حسنه ، وسلنى : متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة ، وادَّخَرته لهذه الساعة . يا غلام ! الإبريق ! فقدَّمه ، وأخذته التاجر فقلَّبه ، ثم قال : وأنبويه منه^(٣) ، لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدَّسْتُ^(٤) ولا يحسن هذا الدَّسْتُ إلا في هذا البيت ، ولا يَجْمُلُ هذا البيت إلا مع هذا الضيف . أرسِلِ الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنُّور^(٥) وصافٍ كقضيب البِلَّور ، استسقى من الفُرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان^(٦) الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السَّقَاء^(٧) ، الشأن في الإناء ، لا يدلُّك على نظافة أسبابه ، أصدقُ من نظافة شرابه . وهذا المِنْدِيل سَكَنِي عن قصته . فهو نَسَجَ جُرْجَان ، وعملُ أَرَجَان^(٨) ، وقع إلى فاشتريته فاتخذت امرأتى بعضه سراويلًا^(٩) ، واتخذتُ بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعًا ، وانتزعتُ من يدها هذا القدر انتزاعًا ، وأسلمته إلى المَطْرَرِ حتى صنعه كما تراه وطرَّزه ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادَّخَرته للظراف . من الأضياف ، لم تُدْلِه^(١٠) عربُ العامة بأيديها ، ولا النساءُ بمآقيها ، فلكل نفيسٍ يوم ،

(١) الخلقان : البال . (٢) دارها : دار فيها . (٣) أنبويه منه : يريد أن خبرطومه الذى ينزل منه الماء منحوت منه ، فليس موصولاً به . وهذا كناية عن الخدق في صنعته .
 (٤) الدست : المجلس . (٥) السنور : الهر . (٦) لسان الشمعة : فتيلتها المشتعلة . (٧) يقول إن صفاء الماء لا يأتي من مهارة الساق ، وإنما من صفاء الإناء . يريد أن يبالغ في مدح إنائه . (٨) أرجان وجرجان : من بلاد إيران .
 (٩) السراويل : ما يلبس موضع الإزار ، ويشد في الوسط .
 (١٠) تذله : تمتهنه .

ولكل آلة قوم ، يا غلام ! الخَوَان ، فقد طال الزمان ، والقِصَاع ، فقد طال المِصَاع ^(١) ، والطعام ، فقد كثر الكلام . فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجبه ^(٢) بالأسنان ، وقال : عَمَرَ الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صنائعها . تأمل بالله هذا الخوان ! وانظر إلى عَرْض مَتْنِه ، وخِفَّة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فتي الأكل ، فقال : الآن ؛ عَجَلْ يا غلام الطعام . لكنَّ الخَوَان قوائمه منه .

قال أبو الفتح : فجاشت : نفسى ، وقلت : قد بقى الخَبِيز والآنه ، والخَبِيز وصفاته والحنطة من أين اشترت أصلا ، وكيف اكْتَسَرَى ^(٣) لها حَمَلًا ، وفي أَيِّ رَحَى طَحَن ، وإِجَانَة ^(٤) عَجَن ، وأَيَّ تَشْوِور سَجَرَ ^(٥) وخَبَّاز استأجر ، وبقى الخطب من أين احْتَطِب : ومتى جُلِب ، وكيف صُفِّف ، حتى جُفِّف ، وحُبِّس ، حتى يَبْس ، وبقى الخَبَّاز ووصفه ، والتلميذ ^(٦) ونَعْنَعته ، والدقيق وملحه ، والخمير وشرحه ، والمِلْح ومِلَّاحته ، وبقيت السُّكَّرَجَات ^(٧) من اتخذها ، وكيف انتقدتها ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخلُّ كيف انْتَقَى عِنَبُهُ ، واشْتَرَى رُطَبَهُ ، وكيف صُهِّرَجَتْ ^(٨) مِعْصَرَتُهُ ، واسْتَخْلَص لُبُّهُ ، وكيف قَيَّر حَبِيَّهُ ^(٩) ، وكَم يساوى دَنَه . وبقى البقل كيف احتيل له حتى قُطِف ، وفي أَيِّ مَسْقَلَة ^(١٠) رُصِف ، وكيف تُؤْتَق حتى نُظِّف . وبقيت المضيرة كيف اشْتَرَى لحمها . ووفَّى شَحْمَتُهَا ، ونُصِبَتْ قِيدُهَا ، وأُجْجَتْ نارها ، ودُقَّتْ أبقارها ،

-
- (١) المصاع : القتال : سمى به ما هو فيه مع صاحبه من هذه الحرب . (٢) عجهه : اختبره . (٣) اكترى : استأجر . (٤) الإجانة : الإناء الذى يعمجن فيه . (٥) سجر التنور : ملاء وقوداً . (٦) التلميذ هنا : الصبي والتابع . (٧) السكرجات : صحاف صفار للكامخ . (٨) صهرجت : طليت بصيغ الصاروج . (٩) قير : طلى بالقار وهو القطران . (١٠) الحبة الكبيرة . (١٠) المبقلة : ما يوضع فيه البقل .

حق أجيد طَبَّخُهَا ، وَعَقَّدَ^(١) مَرَقُهَا . وهذا خَطَبٌ يَطْمُ^(٢) ، وأمر لا يَمُ ، فقامت . فقال : أين تريد ؟ فقلت : حاجةً أقضيها . فقال : يا مولاي تريد كَسِيفًا يُزْرَى بربيعِي^(٣) الأمير وخريقِي^(٤) الوزير ، قد جُصِّصَ^(٥) أعلاه ، وَضُهِرَ جِ أسفله ، وَسُطِحَ سَقْفُهُ ، وَفُرِشَتْ بالمرمر أرضه ، يَزِلُّ عن حائطه الذَّرُّ فلا يعلَقُ ، ويمشي على أرضه الذباب فيزَلَّتْ ، عليه بابٌ غَيْرَانُهُ^(٦) من خَلِيطِي ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ، فقلت : كُلُّ أنت من هذا الجِرَاب ، لم يكن الكنيف في الحساب . وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح : يا أبا الفتح المَضِيرَة ! وظن الصبيان أن المضيرةَ لَقِبُ لي ، فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضَّجَر ، فلقى رجلُ الحجر بعمامته ، فغاصَ في هامته . فأخذتُ من النعال بما قَدُمُ وحَدُّثُ ، ومن الصَّقْع بما طاب وخَبِثُ . وحُسِّرْتُ إلى الحبْس ، فأقمت عامين في ذلك النَّحْس ، فَتَنَدَّرْتُ أن لا آكلَ مَضِيرَةً ما عشت . فهل أنا في ذا يا آلَ هَمْدَانَ ظالم .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عُدْرَه ، ونذرنا نَدْرَه ، وقلنا قديمًا جَنَّتِ المضيرة على الأحرار ، وقَدَّمَت الأراذل على الأحرار .

وهذه المقامة تعرض علينا البديع ، بكل ما أوتى من خفة ورشاقة لا من حيث انتخاب الألفاظ والعبارات حسب ، بل أيضًا من حيث الروح الفكاهي الذي طبع به مقاماته ، فأصبحت حرية بأن تُروى في المجالس ، ويتلفقها الطلاب في الأقاليم الإسلامية المختلفة ؛ إذ يقرعون فيها ما يسرى عن نفوسهم ،

(١) عقد المرق : غلى حتى غلظ . (٢) يطم : يعظم ويتفاقم .

(٣) ربيع الأمير : ما يسكنه في الربيع . (٤) ما يسكنه الوزير في الخريف .

(٥) جصص : طلى بالجص وهو الجير .

(٦) غيرانه : جمع غار ، أراد بها الفواصل بين ألواح الباب .

ويرسم الضحك على شفاههم .

ولم تكن نفس البديع مطوية دائماً على الضحك والفكاهة ، فمن يتابعه في رسائله يجده أحياناً يفضي إلى ضروب من التشاؤم . وقد يكون مرجع الجانبيين عنده حدة في جسده جعلته مرهف الشعور دقيقة . وهي حدة كان يرافقها ذكاء شديد وبديهة حاضرة ، فأعده ذلك ليُطْرَف قُرْأه بدعاباته وفكاهاته .

ويرى القارئ بجانب ذلك براعة البديع في استخدام السجع ، فالكلمات تشترك بأسلاكه ، وكان صائغاً ماهراً يُحَسِّن ضمَّ جواهرها بعضها إلى بعض وتكوين عقود منها تأخذ بالأسماع والأبصار . ولا ريب في أن ذلك موهبة يختصُّ بها ، أو قل إنه فنٌّ لم يَرَقْ إليه إلا بعد ثقافة واسعة باللغة ، وتدريب شاق على صناعة أساليبها بحيث وقف وقوفاً دقيقاً على خصائصها الصوتية .

فليس كل سجع يعجبنا ، بل السجع منه الثقيل ومنه الخفيف الذي يرقُّ حتى لكأنه يَشْفِ عن المعنى الذي يضطرب في عقل صاحبه وقلبه . وكان بديع الزمان يعرف كيف يصوغ لفظه وكيف يعرضه ، وكيف يوقعه ، وكيف يُحدث فيه من التدرجات الصوتية ما يجعله يدخل على الأذن بدون استئذان كما يقولون .

وواضح أنه يستعين على ذلك بانتخاب ألفاظه ، وتقصير سجعاتها ، وكأنه كان يعرف أن تطويل السجعات من شأنه أن يطيل المسافة الزمنية للأصوات ، فلا يعطيها الرشاقة التي نحسها عنده .

سجعه إذن قصير ، قد أحكم قوالبه وضبط أنغامه ، ولم يكن يكتفي بذلك ، بل كان يضيف إليه تلوينات البديع المعروفة من جناس وغير جناس . واهتمَّ خاصة بالتصوير فنسج كثيراً من الأخيلة في أساليبه .

ولعل القارئ لاحظ أن هذه المقامة تخلو من الشعر . وهذه ليست عادته المقامة

المتبعة ، فهو يضمّن مقاماته كثيرًا من الشعر ، كما يضمّنها كثيرًا من الأمثال وآى القرآن الكريم .

ومر بنا آنفًا أنه عاب الجاحظ في مقامته الجاحظية بأنه « ينفر من معتاص الكلام وغريبه » وأنه « لا يستعمل المهمل غير المسموع » ، وقلنا إن هذا ليس عيبًا في الكاتب ، بل لو أن الجاحظ كان من ذوق ناقد أو بعبارة أخرى كان من ذوق بديع الزمان لكان ذلك هو العيب فيه والنقص في بلاغته .

ومن يرجع إلى مقامة البديع يلاحظ فيها كثيرًا من اللفظ الغريب ، يحشو به أساليبه كقوله في المقامة القرّدية على لسان عيسى بن هشام : « بينا أنا بمدينة السلام ، قافلا من البلد الحرام : أميسُ ميسِرَ الرّجُلَة ، على شاطئ الدّجلة » فقد استخلم كلمة أميس بمعنى أتبختر ، وليس هذا ما نريد أن نقف عنده ، إنما نقف عند كلمة الرّجُلَة فهي جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لم تكن هناك ضرورة لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . ومثل هذا قوله في المقامة الموصلية : « فأخذَه الجُفُّ ، وملكتَه الأكف » والجُفُّ هنا : الجمهور . ومن ذلك قوله في المقامة المارستانية : « الإكراه مرة بالمِرّة ، ومرة بالدّرّة » والمِرّة هنا : العقل .

ولعل المقامة الحمدانية أكثر المقامات ألفاظًا مهملة وحوشية غير مسموعة ، فقد عُنِيَ فيها بوصف الفرس ، وعرض فيها كل محصوله اللغوي في هذا الوصف وكأنه يؤلف متنًا في غريب الفرس لا مقامة أدبية .

ولا نرتاب في أن هذا عنده أثر من آثار ابن دريد في أحاديثه التي أشرنا إليها والتي يحتفظ بها كتاب الأملى ، فهي كلها تمتلئ بأوابد اللغة وشواردها المهملة . ولعل في هذا ما يدل على أنه كان يستحضر في ذهنه دائماً صورة الأحاديث المذكورة لشيوعها بين المتعلمين في عصره .

والحق أن مقامته كلها إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، ولذلك حشد فيها هذه الألفاظ الغريبة ، ومع ذلك فلم يكثر منها ؛ إذ كان يأتي بها بين الحين

والحين ، وكان ما يطبع به أساليبه من خفة ومرونة يغطي على مثل هذه الأعشاب ، فلا يجعلها تظهر للعين ولا للأذن تمامًا .

ولم تكن خفته ومرونته كل ما يغطي به هذا العيب ، بل كان يغطيه أيضاً بضرب من الفكاهة مسح به على جوانب كثيرة من المقامة عنده . وكانت تسعفه في ذلك بديهة حاضرة ونشاط ذهني متفقد ،

مقامة الحريري

١

الحريري

هو أبو محمد القاسم بن عليّ الحريري ، ولد لأسرة عربية سنة ٤٤٦ للهجرة بضاحية من ضواحي البصرة ، تسمى المشّان ، كثيرة التمر والرطب والفاكهة . وبها كانت ملاعب صباه ومسارحه . ولما شبّ تحوّل عنها إلى البصرة ، ونزل بحىّ فيها يسمّى حىّ بنى حرّام ، وأكبّ على الدراسات الدينية والعلوم اللغوية والنحوية ، وتخرّج في ذلك كله حاذقاً به ، بارعاً غاية البراعة .

وكان فيه ذكاء ولسن وفصاحة وبلاغة ، فجذب إليه الأنظار ، وطمّحت نفسه إلى وظائف الدولة ، وليس تحت أيدينا أخبار كثيرة تفسّر تقلبه في هذه الوظائف . وتلك عادة القدماء في تراجعهم الأدباء فقلما أعطونا تفاصيل حياتهم .

ونحن نرى طائفة منهم تذهب إلى أن والى البصرة عُنِي به ، وهو الذى دفعه إلى صنع مقاماته ، وتذهب طائفة ثانية إلى أن الذى عُنِي به أنوشروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) وتزعم طائفة ثالثة أن الذى عُنِي به وزير آخر لنفس الخليفة يسمى ابن صدقة .

وكلّ ذلك إنما هو تفسير لما جاء في مقدمته للمقامات من قوله : « فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » ، فقالوا إنه يشير إلى أحد الثلاثة السابقين ، واختلفوا فيهم .

غير أن من يرجع إلى تاريخ تأليف الحريري لمقاماته يراه قد أتمها سنة ٥٠٤ للهجرة ، ومعنى ذلك أن ما يقال من صلة ابن صدقة وأنشروان بتأليفها غير صحيح ، فأنشروان إنما ولي وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، أما ابن صدقة فوليها وهو حتى سنة ٥١٢ ولكن بعد تأليفه لمقاماته بسنوات ثمان .

من أجل ذلك كنا نذهب إلى ما رواه الشَّريشيّ ، شارح مقاماته الكبير ، في تعليقه على العبارة السابقة إذ روى عن بعض أساتذته أن الذي أشار إليه الحريريّ في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وكان له حظ من الأدب وعناية بأهل العلم ، ويقال إنه أثبت في الديوان منهم أسماء ألف وخمسمائة شخص ، وأجرى عليهم الأموال والأرزاق .

فقصده الحريريّ ، وما زال يبعثه على صنع المقامات ، حتى أتمها ورفعها إليه ، فبلغ عنده أسنى المراتب ، ويظهر أنه ظل بالقرب منه في بغداد حتى توفّي ، وخلفه المسترشد ، فاتصل بكبار رجال الدولة لعهد ، ومن هنا تأتى صلته بابن صدقة وزيره . وربما اتصل بأنشروان حينئذ كما اتصل بغيره من البارزين وقدّم لهم نسخاً من مقاماته ، فأشكل ذلك على من تحدثوا عن حياته وأخباره . وأكبر الظن أنه زهد في بغداد بعد وفاة سيده المستظهر ، فرجع إلى بلده ، وعُيّن صاحبَ الخبر بها ، وهي وظيفة تشبه وظيفة « مصلحة الاستعلامات » في عصرنا . واكتفى بهذه الوظيفة ، وذهب يُعْنَى بمقاماته ومحاضراته ، فكانت له حلقة بمسجد حَيّه الذي كان ينزل فيه هناك . وكان أحياناً يترك البصرة ويذهب إلى المشان ، فيتبعه الطلاب .

ويقول الرواة إنه كان بخيلاً قبيحاً دميم الحلقة والهيئة مُبْتَلَى بِسِتْفٍ لحيته ، ويزعمون أن رجلاً طلبه ، ليقراً عليه مقاماته ، وسأل عن مسجده الذي يقرؤها فيه ، فدله الناس عليه ، فلما رآه بُهِتَ ، وقال في نفسه : لعله ليس هو هذا ، فرجع ، ثم قال في نفسه : لعله هو ، ثم استبعد أن يكون الحريريّ هذا الشخص الدميم الذي تفتححه العيون . وكل ذلك وهو يلحظه .

وهمَّ الرجل بالجلوس بين يديه ، فبادره بقوله : ارحل فأننا من تطلب أكبر من قرد محنك . ويزعم الرواة أيضاً أن رجلاً آخر حدث منه ذلك والحريري يراقبه ، فلما التمس منه أن يمل عليه شيئاً من مقاماته قال له : اكتب :
 ما أنت أول سائر غرّة القسَمَرُ وزائر أعجبتة خضرة الدُّ من
 فاختَرُ لنفسك غيري إنني رجلٌ مثلُ المعيدى فاسمع بي ولا تترنى
 فخبجل الرجل منه ، وانصرف .

ومهما يكن فقد دوَّتْ شهرته في العالم الإسلامي ، وهو لا يزال حياً ، ويقال إنه أعطى إجازة لسبعمئة طالب أن يرووا مقاماته عنه في الناس . وهو عدد ضخم يدل على مبلغ عناية معاصريه بعمله ، ومدى ما تمتع به من مكانة أدبية مرموقة في عصره .

وخلّف الحريري بجانب المقامات ديواناً من الشعر ومجموعة من الرسائل كما خلّف كتباً في النحو واللغة ، من أشهرها كتاب « درّة الغوّاص في أوهام الخواص » وهو مطبوع ، وفيه يتعرّض لأخطاء الأدباء وأغلاطهم في استعمال الألفاظ والأساليب ، وسرى في مقاماته ما يدل دلالة بينة على أنه كان واسع المعرفة بالمواد اللغوية .

وما زال يدبّع هذه الأعمال من جهة ، وقائماً على وظيفة « صاحب الخبر » من جهة ثانية ، حتى توفي سنة ٥١٦ للهجرة . واسنا ندرى أحجّ أم لم يحج ؟ ويغلب على ظننا أنه أدّى فريضة ربه ، ففي مقاماته نزعة دينية وخلقية تدل على أنه كان حقيقياً بدينه ، مرضياً في سلوكه وخلقه .

وكان دائماً موسّعاً عليه في الرزق ، ويقول الرواة إنه كان له ضياع واسعة في المشآت ، ولعله من أجل ذلك كان كثير النزول بها والإقامة فيها . وعلى نحو ما كان سعيداً في نفسه كان سعيداً بأبنائه الثلاثة ، وهم : عبید الله وأبو القاسم عبد الله وأبو العباس محمد . أما أولهم فكان قاضى البصرة ، وأما الثانى فكان موظفياً في ديوان بغداد . وأما الثالث فورث وظيفة أبيه ، وزار

العماد الأصفهاني البصرة سنة ٥٥٦ للهجرة ، ورأى أبناءه لا يزالون يقومون على الوظيفة نفسها . وكان الطلاب بعد وفاة الحريري يقصدون أبناء الثلاثة المذكورين ، ويأخذون عنهم مقامات أبيهم ، وكانوا يشرحون لهم صعوباتها اللغوية . واشتهر من بينهم في ذلك محمد ، فهو مبدأ السلسلة الطويلة من سراحها الذين نهضوا بتفسيرها وحل مشكلاتها ، من مثل الشرشي وغيره .

٢

تأليف الحريري لمقامته

يختلف الرواة في المكان الذي ألّف فيه الحريري مقامته ، فمن قائل إنه ألفها ببغداد ، ومن قائل إنه ألفها بالبصرة ، ثم أصدع إلى بغداد ، وعرضها على الأدباء هناك ، وكانت أربعين مقامة ، فاستحسنوها وتداولوها ، واتهمه بعض حسدته بأنها ليست من عمله ، وقالوا له : إن كنت صادقاً في أنها من عملك ، فلتصنع مقامة جديدة ، تثبت حجتك وصحة قولك .

وتزعم القصة أن الحريري حاول ذلك أربعين يوماً ، فلم يفتح الله عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة كئيلاً أسيفاً ، والناس يتحدثون عنه ، ويقعون فيه ، وغاب بها خيبة من الزمن ، ثم رجع ، وقد صنع عشر مقامات جديدة ، فحينئذ سلموا له واعترفوا بفضله .

وفي رأينا أن هذا كله قصص " لا صلة له بالواقع ، لسبب بسيط ، وهو أن نظام تأليف المقامات عند الحريري يدل — كما سنرى بعد قليل — أنه ألفها جملة واحدة ، ولم يقع في ذهنه أن يؤلفها أربعين مقامة ، ثم عاد فألحق بها عشرًا ، بل الذي حاوله منذ أول الأمر أن يجعلها خمسين معارضة لمقامات بديع الزمان الحمسين .

ونظن ظنّاً أنه ألفها في بغداد حين أظلمت عناية المستظهر كما قدمنا ، وقد اختار لها بطلا هو أبو زيد السّروجيّ وراويّة هو الحارث بن همام . واتفق الرواة على أن الحارث شخصية خيالية ، أما أبو زيد فقالوا إنه شخصية حقيقية ، ونسبوا إلى الحريريّ أنه قال :

« كان أبو زيد السّروجيّ شيخاً شحاذاً بليغاً ومُكدياً فصيحاً ، وردّ علينا البصرة ، فوقف يوماً في مسجد بني حرّام فسلم ، ثم سأل الناس ، وكان بعض الولاة حاضراً ، والمسجد غاصّ بالفضلاء فأعجبهم فصاحته وحسن صياغته كلامه وملاحظته . وذكر أسرار الروم ولده كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون (بين المقامات الخمسين) . واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده ، وظرافة إشارته في تسهيل لإبراده ، فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يُغيّر في كل مسجد زيّه وشكله ، ويظهر في فنون الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرّفه في تلونه وإحسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكانت أول شيء صنعته » .

وتأخذ هذه الرواية أو يأخذ هذا الخبر صوراً أخرى مختلفة كلها تحاول أن تثبت أن أبا زيد شخص حقيقي . ويزعم بعض الرواة أنه كان يسمى المطهر ابن سلال ، وأنه كان نحويّاً بليغاً . ولا نلبث أن نجد الكتب الخاصة بتراجم النحاة ترجم للمطهر ، وتقول إنه صاحب أبي القاسم الحريريّ الذي أنشأ المقامات على لسانه ، وإنه كان فيه أدب وله معرفة باللغة والنحو ، وإنه قرأ على الحريريّ وتخرّج به ، وروى عنه أرجوزته « مُسلّحة الإعراب » وأنه توفي ببغداد حول سنة ٥٤٠ للهجرة .

وإذن فنحن إزاء مسألة من مسائل الدّور ، فالحريريّ روى المقامات عن

أبى زيد ، وأبو زيد كروى عنه بعض كتبه ، فهو أستاذ الحريرى من طرف ، والحريرى أستاذه من طرف آخر ! وقد يكون المظهر شخصية حقيقية وأنه أحد تلامذة الحريرى كما تقول كتب النحاة ، أما أنه أبو زيد السروجى فهذا هو الوهم الذى وقعوا فيه .

وليس هذا كل ما أخطئوه ، فقد أخطئوا أيضاً حين ظنوا أن أبا زيد شخص حقيقى ، وبالغوا فأضافوا ذلك إلى الحريرى . وهو برآء مما يقولون ، إذ ليس أبو زيد عنده إلا كأبى الفتح عند البديع ، فهو من وهمه وعمل مخيلته ، ابتدعه ابتداءً ليدير عليه مقاماته .

والخبر السابق الذى روه عن الحريرى ليس إلا تلفيقاً استمدوه من المقامة الحرامية ، وفيها نجد الحريرى يعرض علينا أبا زيد شيخاً يستجدى الناس ببلاغته ، وقد ورد على البصرة ، ووقف فى مسجد بنى حرام وشكا حاله ، وألقى قصيدة بليغة فى الحاضرين ، يقول فيها :

أنا من ساكنى سرور	ج ذوى الدين والهدى
كنتُ ذا ثروة بها	ومُطاعاً مسوداً
مربعى مألوف الضيو	ف ومالى لهم سدى
ويرانى المؤمنو	ن ملاذاً ومقصدا
ففضى الله أن يغني	ر ما كان عوداً
بؤاً الروم أرضنا	بعد ضغن تولدأ
فتطوحتُ فى البلا	د طريداً مشرداً
أجندى الناس بعدما	كنتُ من قبل مجندى

ثم يقص على الناس أن ابنته سُبَيْب ، ثم يطلب إليهم العون ، فكل يبادر إلى إعطائه . وهى مغامرة كبقية مغامرات أبى زيد فى المقامات ، ولكن الرواة من ذوى الخيال المحدود ظنوا ذلك حقيقة ، ولفقوا الخبر السابق .

وإن من يقرأ مقامات الحريرى كلها ويتعقبه فيها يعرف أنه ألفها جميعاً

عملاً واحداً . وحقاً لا يبدو الربط واضحاً بين مقامة وتاليتهما ، فقد كانت وجهة الحريري كوجهة بديع الزمان ، ونقص العناية بالفظلا بالمعنى ، فكلاهما لم يكن يعنيه من بطله ومغامراته سوى عَرَض صور من الأساليب البليغة .

غير أننا إذا فحصنا مقامات الحريري وجدناه يرتبها ويرقسها ، فتلک المقامة الأولى ، وتلك المقامة الخمسون وكل مقامة بينهما تأخذ رقمها الخاص . وهذا معناه البناء المحكم ذو الحلقات . ونراه في الحلقة الأولى أو المقامة الأولى ، وهي المقامة الصنعانية ، يقوم بالتعريف بين الحارث بن همام وأبي زيد ، فالحارث قد اغترب إلى صنعاء وهناك رأى شخصاً يعظ في حلقة ، وهو ناهل ، عليه ثياب السفر ، قد أوتى حظاً من البلاغة ، فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرقع الأسماع بزواجر وعظه ، فأعجب به ، وحاول التعرف عليه ، فتبعه متواريماً عنه ، حتى دخل متغارة ، وهناك رآه مع تلميذ له ، فسأله عنه ، فقال : « هذا أبو زيد السَّروجى ، سراج الغرباء ، وتاج الأدباء » .

وعلى هذا النحو يعرف الحريري راويته ببطله في أول مقاماته ، ثم ينتقل به أديباً مستجدياً في المقامات التالية ، لا يلم ببلدة حتى يتركها إلى أخرى ، وكلها من بلاد العالم الإسلامي ، وهي بلاد متباعدة . وفي كل بلدة يقوم البطل بحيلة على مَنْ حوله من الناس أو الحكام والقضاة ، وفي كل مرة يعرفه الحارث بعينه ، ويكشف أمره وسره .

ويُطرفنا الحريري دائماً بالصورة التي يعمى بها حقيقة أديبه الشخَّاذ ، فهو دائماً يظهره في قالب جديد تارة في هيئة مزرية ، وتارة في هيئة حسنة ورؤاء . وتارة يكون وحده ، وتارة مع ابنه أو تابعه أو زوجته . وكثيراً ما نراه يحتال على الولاة والقضاة بدعاوى مزيفة على بعض أسرته منتقلاً من صَيِّد إلى صَيِّد ، حاملاً لخرابه ، ومنكراً لشخصه . وقد يلبس لبسَ الرهبان أو لبس النسوان ، وأكثر ما يكون في ثياب خلقة وأسفال . وما يزال يمد مكاييد مكره وأحاييل خستله .

وكل مقامة من الأولى إلى الثامنة والأربعين هي شَرَك صغير من أشراك
أبي زيد يقصه الحارث ويروى ما انزلق على لسانه فيه من أفانين كلامه . ونراه
يعرضه علينا في المقامة التاسعة والأربعين ، وهي المقامة الساسانية وقد بلغ من
الكِبَر عِتِيًّا ، فأحضر ابنه ، وأوصاه أن يقوم على حرفة الكُدِيَّة من بعده ،
ومما قال له :

« يا بُنَيَّ إنه قد دَنَّا ارتحالي من الفناء ^(١) ، واكتحالي بمرودِ الفناء ،
وأنت بحمد الله وليُّ عهدي ، وكَبَشُ الكَسْبِيَّة الساسانية من بعدى ، ومثلك
لا تُقَرِّعُ له العصا ^(٢) ، ولا يُنْبِه بطَرَقِ الحَصَا ، ولكن قد نُدِب ^(٣) إلى
الإذكار ، وجُعِلَ ضيقاً للأفكار . . . فاحفظ وصيَّتِي ، وجانبُ معصيتِي ،
واحدُ مثالي ، وافقَه أمثالي ، فإنك إن استرشدت بنصحي ، واستصبحت
بصُبحِي ، أمرَعُ خانك ^(٤) ، وارتفع دخانك . . يا بُنَيَّ إني جَرَبْتُ حقائق
الأمر ، وبلَّوْتُ تصارييف الدهور ، فرأيتُ المرءَ بنشَبِه لا بنسَبِه ، والفحص
عن مكسبه لا عن حسبه . وكنت سمعت أن المعاش إمارة وتجارة وزراعة
وصناعة ، فمارستُ هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدتُ منها
معيشة ، ولا استرعدتُ فيها عيشة » .

واستمر يتحدث عن هذه الأوجه الأربعة للمعاش ، فقال عن الإمارة
إنها كأضغاث الأحلام لا تلبث أن تزول عن صاحبها مع مرارة الفطام ، أما
التجارة فَعَرُضَةٌ للمخاطر وما أشبهها بالطيور الطيَّارات . وأما الزراعة فذلَّةٌ
ومُسَهْكَةٌ ، وقيود عائقة ، وأما الصناعة فكثيراً ما تكسُد ولا تنفُت ، وإذن

(١) الفناء : ردهة المنزل .

(٢) في المثل : لا يقرع له العصا ، ولا يقلقل له الحصى ، كناية عن حنكته وتجربته .

(٣) ندب إلى : استحسن .

(٤) الخان : الفندق ، وأمرعُ خانك : أَى بيتك . وهي كناية عن يسار الحال ، ومثل هذه

العبارة : ارتفع دخانك : أى كثر خيرك .

فليس إلا حرفة الكُدْنية ، فهى المتجر الذى لا يكسد ولا يبور ، والمصباح الدائم النور . ثم أخذ أبو زيد يَسْرُدُ لابنه كيف يقتطف ثمارها ويعيش عن طريقها ، عارضاً لفنونها وأحاييل كيدها وشباك مكرها .

وواضح أن الحريري يَعِدُّنا بهذه المقامة الإشراف على نهاية عمله وخاتمة تأليفه ، فقد تنقل ببطله فى البلدان الإسلامية المختلفة ، حتى أشرف به على الأيام الأخيرة من عمره ، فجعله يودع حرفته ، ويحضر ابنه ليتأقّى عنه وصيته ، ويلقى له فيها بخبرته وتجربته .

ونقرأ فى المقامة الخمسين فإذا الحريري يعرض علينا أبا زيد ، وهو يتوب إلى الله من صنمته ، ويندم على ما تقلم من ذنوبه فيها ، فهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، وينشد :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ	أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدْتُ
كَمْ خَضَعْتُ بِحَجَرِ الضَّلَالِ جَبْهَلًا	وَرُحْتُ فِي الْغَيِّ وَاعْتَدْتُ
وَكَمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخَطُّي	إِلَى الْخَطَايَا وَمَا انْتَهَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا	نِسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ
يَا رَبِّ عَفْوًا فَأَنْتَ أَهْلٌ	لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ

ويعلم هذه التوبة الصادقة إلى صديقه الحارث بن همام ، ويغيب عنه ، فلا يعود يراه ، ولا يزال يتنسم أخباره ، حتى يعرف أنه رجع إلى بلده سروج بعد أن فارقها الروم ، ولبس الصوف وأمَّ الصوف ، وصار بها الزاهد الموصوف ؛ وبذلك لم يعد ذا المقامات ، فقد أصبح ذا الكرامات . ويرحل إليه ، فيجده قد انتصب فى محرابه ، وأقبل على ذكر ربه وتسيبحه . وسلم عليه ؛ فحيّاه دون أن يذكر شيئاً من قديمه ، فقد مضى فى قنوت وخشوع وسجود وركوع . وصحبته إلى بيته وأسهمه فى طعامه ، وهو طعام زاهد فقير . حتى إذا أضاعت تباشير الصباح أقبل على صلاته ومناجاة ربه ، حتى ليبيكى ؛ ويبكى معه الحارث . ويمضى إلى مسجده هائماً بربه ، فيعرف الحارث أنه أصبح من المتصوفة الذين

أخلصوا وجوههم ونفوسهم إلى ربهم . فيرحل عنه ، وهو يقول له : هذا فراق
بني وبينك . وكانت هذه خاتمة التلاقي .

وبذلك تنتهى المقامات ، وقد أهمل الحريرى النهايتها خير تأهيل كما افترضها
خير افتتاح ، فهو فى أولها يعرف البطل براويته ، وهو فى خاتمها يفرق بينهما .
وهو يعد للخاتمة بالمقامة الساسانية كما أسلفنا . وكل ذلك دليل بَيِّن على أن
الحريرى صنع مقاماته بشكل بناء متكامل ، له أول واضح وله آخر واضح .
ونراه يقدم لهذا البناء بمقدمة يذكر فيها أنه أقدم عليه محتدياً على عمل البديع ،
فإن عظيماً وهو المستظهر ، ! طلب إليه أن ينشئ مقامات يصوغها على مثال
مقامته . ونراه يتواضع إذ يقول إنه طلب منه أن يُقبله من هذا العمل الصعب ،
فلما لم يسعفه بالإقالة لَبَّى دعوته تلبية المطيع . يقول : « وبذات فى مطاوعته
جهد المستطيع ، وأنشأت — على ما أعانيه من اقريحة جامدة ، وفطنة خامدة ،
وروية ناضبة ، وهموم ناضبة — خمسين مقامة » .

وهذا تواضع جميل منه ، وقد كرره فى آخرها ، إذ ذهب يقول : « إنها
من سَقَطَ المتاع ، ومما يستوجب أن يباع ولا يبتاع ، ولو غَشَّيْنِي نور التوفيق ،
ونظرت لنفسي نظر الشفيق ، لَسَتَرْتُ عَوَارِي الذى لم يزل مستوراً ؛ ولكن
كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، وأنا أستغفر الله تعالى مما أودعتها من أباطيل
اللغو ، وأضاليل اللهو ؛ وأسترشده إلى ما يعصم من السهو ، ويُحْظِي بالعفو ،
إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وولى الخيرات فى الدنيا والآخرة » .

على أنه ينبغي أن نعرف أن هذا التواضع الذى افتتح به مقاماته واختتمها لم
يكن صادقاً فيه كل الصدق ، فقد كان مؤمنًا بعمله ، وقد أجرى على لسان
أبى زيد شهادات مختلفة تؤكد تفوقه وإحسانه ، فن حين إلى حين نراه يتحدث
عن روعة كلامه وبلاغته ، حتى ليقول فى المقامة السابعة والأربعين :

إن يكن الإسكندرى قبلى فالطلُّ قد يبدو أمام الوَبَل
والفضل للوابل لا للطل

فهو يقدم أبا زيد على أبي الفتح الإسكندري ، وبالحري أنه يقدم نفسه على بديع الزمان . وقد أكثر الحارث بن همام من وصف افتنان أبي زيد ومقدرته على حشو الكلام ، مع البلاغة الرائعة والبديهة المطاوعة والغوص في لُجج البيان . وليس الحارث وحده هو الذي تبهره فصاحته ، فالولاة والحكام والقضاة والناس جميعاً يُفْتَسِنُونَ ببراعة عبارته ومُسَلِّح استعارته ، وما ينظم وينثر من دُرِّه مما يخلب العقول ، ويسحر القلوب .

٣

الموضوع

تدور مقامة الحريريّ على الكُدِيّة والاستجداء ، وهو من هذه الناحية أدق من بديع الزمان ؛ فقد رأينا المقامة عنده إنما تدور على الكدية غالباً ، وأنه أشرك معها موضوعات أخرى ، فلم يقف بها عند الموضوع الأساسي . أما الحريريّ فسلّكها جميعاً في قالب الشجاذة ، وعرض أبا زيد فيها دائماً أديباً شحاذاً . غير أن هذه الحبكة الظاهرة ينبغي أن لا تغرنا ، وأن لا نطلق عن طريقها أحكامنا فإن الحريريّ اتخذ الكدية شكلاً ظاهراً لمقامته ، وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناه يعالج بها موضوعات مختلفة ، منها ما يشترك فيه مع البديع ، ومنها ما ينفرد به .

أما ما يشترك فيه معه فهو الوعظ ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الإسكندريّ وأعظماً في مقامتين فإن الحريريّ عرض أبا زيد وأعظماً في عشر مقامات ، بل قد تزيد . ومنذ المقامة الأولى نجد هذه النزعة بارزة عنده ، وفيها يقول :

« أَيُّهَا السَّادِرُ فِي غُلَاوَاتِهِ ، السَّادِلُ ثُوبَ خَيْسَلَاتِهِ ، الجَامِحُ فِي جَهَالَاتِهِ ، الجَانِحُ إِلَى خَزَعِيَلَاتِهِ ، إلَامُ تَسْتَمِرُّ عَلَى غَيْبِكَ ، وَتَسْتَمَرُّ مَرَعَى مَرَعَى بَغْيِكَ ، وَحَتَامُ تَنْتَاهِي فِي زَهْوِكَ ، وَلَا تَنْتَهِي عَنْ لَهْوِكَ ، تَبَارِزُ بِمَعْصِيَتِكَ ، مَالِكُ نَاصِيَتِكَ ، وَتَجْتَرِي بِقَبْحِ سِيرَتِكَ ، عَلَى عَالَمِ سِرِّيَتِكَ ، وَتَتَوَارَى عَنْ

قريبك ، وأنت بمرأى رقيبك ، وتستخفى من مملوكك ، وما تَخْفَى خافية*
على ملكك ، أنتظن أن ستنفلك حالك ، إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك
مالك ، حين تُوْبِقْكَ أعمالك ، أو أن يغنى عنك ندمك ، إذا زلّت قدمك ،
أو يعطف عليك معشرك ، يوم يضمك محشرك ؟ . . . »

ويستمر في هذا الوعظ لا في هذه المقامة وحدها ، بل أيضاً في المقامة
الثانية ، والحادية عشرة ، والواحدة والعشرين ، والخامسة والعشرين ، والواحدة
والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ، والواحدة والأربعين ، والثامنة والأربعين ، والخمسين .
ففي هذه المقامات جميعاً وفي قطع صغيرة من مقامات أخرى يحضُّ على الهدى
ويحث على العمل الصالح ، ويُنْزِرُ على الدنيا ومن يُغْرَمُون بها ، ويذكر
ثواب الآخرة وما ينتظر الناس . ولعل من أطرف ما صنعه في هذا الجانب أن
نجاهه في المقامة الثانية عشرة الدمشقية يقدم لنا أبا زيد خفياً لقافلة ، ونراه
يخفها لا بعينه ، بل بدعوات طيبات تطرد على هذا النسق :

« اللهم يا مُجِبِّي الرُّفَات ، ويا دافع الآفات ، ويا وافي الخافات ، ويا كريم
المكافاة ، ويا مَوْثِلَ العُقَاة ^(١) ، ويا وليَّ العفو والمعافة ، صلِّ على محمد خاتم
أنبيائك ، ومبلغ أنبيائك ؛ وعلى مصابيح أسرته ، ومفاتيح نُصْرته ، وأعدني
من نزغات الشياطين ، ونزوات السلاطين ، وإعنات الباغيين ، ومعاذ الطاغين ،
ومعاذ العادين ^(٢) ، وعدوان المعادين ، وغلب الغالبين ، وسلب السالين ،
وحيل المحتالين ، وغيب ^(٣) المعتالين ، وأجرني اللهم من جور المجاورين ^(٤) ،
ومجاورة الجائرين ، وكُفِّ عني أكُفَّ الضَّامنين ، وأخرجني من ظلمات
الظالمين ، وأدْخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم حُطِّني في تربتي ^(٥) ،
وغُربتي ، وغُيبْني ، وأوْبِني ، ونُجِّنْني ^(٥) ورجعتي ، وتصرفني ،

(١) العفاة : طلاب الحاجات . (٢) العادين : الظالمين . (٣) غيل : جمع
غيلة . (٤) المجاورين : الجن . (٥) تربتي : وطني . (٦) نجيتي : من
الفعل يتنجع أي يطلب المعروف .

وَمُنْصَرَفِي ، وَتَقْلِبِي ، وَمُسْتَقْدَبِي ، وَاحْفَظِي فِي نَفْسِي ، وَنَفَائِسِي ،
وَعِرْضِي ، وَعَرَضِي ^(١) وَعُدْدِي وَعُدْدِي . . . وَلَا تَلْحَقِي بِي تَغْيِيرًا ،
وَلَا تَسْلُطْ عَلَيَّ مُغْيِيرًا ، وَاجْعَلِي لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا . . . »

وَيَسْخِفُ الْحَرِيرِيُّ عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي تَنْحُو نَحْوَ الْوَعْظِ
أَوْ الدِّعَاءِ بِخُفَّةِ أَسْلُوبِهِ وَرَشَاقَةِ عِبَارَاتِهِ . فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا
يُولَوْنَ وَجُوهَهُمْ نَحْوَ الدِّينِ يَرْجُونَ مِنْ رَبِّهِمْ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ أَنْفُسِهِمْ
وِظْلُمَاتِ وَلَاتِهِمْ وَفَسَادِ مُلْكِهِمْ وَحُكْمِهِمْ ، وَأَنْ يَعِينَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ
مِمَّا دَفَعَهُمْ دَفْعًا ، أَوْ قَلَّ دَفْعٌ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَى التَّصَوُّفِ ، وَأَنْ يَطْلُبُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ
وَيَتْرَكُوا مَا عِنْدَ النَّاسِ . إِذَا عَرَفْنَا ذَلِكَ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْدِرَ هَذِهِ الْمَوَاقِعَ وَالْأَدْعِيَةَ
الْحَرِيرِيَّةَ حَقَّ قَدْرِهَا ، وَأَنْ نَدْرِكَ مَدَى تَأْثِيرِهِ بِهَا فِي الْأَدْبَاءِ وَالطَّلَابِ مِنْ حِوَالِهِ .
وَسُخِّفَ الْحَرِيرِيُّ بِمَوْضُوعٍ ثَانٍ لَا يَتَّصِلُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَإِنَّمَا
يَتَّصِلُ بِالْحَيَاةِ الْأَدْبِيَّةِ فَقَدْ تَعَقَّدَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وَأَخَذَ أَصْحَابُهَا يُعْنَوْنَ بِالْعُقُودِ
الْبَلَاغِيَّةِ . فَلَيْسَتْ الْبَلَاغَةُ الرَّائِعَةُ هِيَ الْعِبَارَةُ الْمُنْمَقَةُ بِالسَّجْعِ وَالْمَحَلَّةُ بِالْوَانِ الْبَدِيعِ ،
فَذَلِكَ أَمْرٌ يَهُونُ ، وَتَسْتَطِيعُ الْأَلْسُنُ كُلُّهَا أَنْ تَتَّصِلَ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا الْبَلَاغَةُ الرَّائِعَةُ
حَقًّا هِيَ الَّتِي تَتِيحُ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَنْحَازَ جَمَلَةً عَنْ كُلِّ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْفَنِّ ،
وَأَخَذَ الْحَرِيرِيُّ يُثَبِّتُ مَهَارَتَهُ فِي ذَلِكَ ، وَخَصَّ بِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَقَامَةً ، أَرَانَا فِيهَا
أَعْلَاهُ الْفَنِّيَّةِ ، وَكَأَنَّهَا أَلْعَابُ بَهْلَوَانِيَّةٍ .

وَأَوَّلُ مَا يَلْقَانَا مِنْ هَذِهِ الْأَلْعَابِ الْمَقَامَةُ السَّادِسَةُ ، وَقَدْ حَضَرَ أَبُو زَيْدٍ دِيْوَانَ
الْمَكَاتِبَاتِ بِبَلَدَةِ الْمَرَاغَةِ ، وَاجْتَمَعَ بِأَرْبَابِ الْبَرَاةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَرُوعَهُمْ
وَيُخَلِّبَ أَلْبَابَهُمْ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ رِسَالَةً أَوْدَعَهَا شَرْحَ حَالِهِ . وَلَيْسَ هَذَا هُوَ
الْمُهْمُ ، إِنَّمَا الْمُهْمُ أَنَّهُ التَّرْزُمُ فِيهَا أَنْ تَكُونَ حُرُوفُ إِحْدَى كَلِمَتَيْهَا مَنْقُوطَةٌ وَحُرُوفُ
الثَّانِيَةِ غَيْرَ مَنْقُوطَةٍ ، عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ : « الْكُرْمُ ثَبَّتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ
يَتَرِّينَ ، وَاللَّؤْمُ غَضَّ الدَّهْرُ جَفَنَ حَسُودُكَ يَشِينُ » . . . وَانْصَبَّ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ

مثل هذه الكلمات مطبلاً ما استطاع حتى بهر سامعيه ، وأوسعوه حفاوة وعطفاً وإكراماً .

وينحرف الحريري عن هذه الطريق الصعبة ، حتى إذا وصل إلى المقامة السادسة عشرة ، وهي المقامة المغربية ، وقف يعرض لُعبة جديدة لا تكاد تخطر ببال ، وهي لُعبة « ما لا يستحيل بالانعكاس » كقولك : ساكب كاس ، فإنه يمكن أن تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، وعرض علينا أمثلة نثرية منها مثل : لُمُ أَخاً ملً ، كَسَبَرُ رجاء أجبر ربك . ثم لم يلبث أن نشرها على أسلاك من الشعر ، فقال :

أُسْ ^(١) أَرْمَلًا إِذَا عَرَا	وَارْعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا
أُسْنَدُ أَخَا نِبَاهَةِ	أَبِينُ ^(٢) إِخَاءٍ دَنَسَا
اسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ	مَشَاغِبٍ إِنْ جَلَسَا
اسْمُرُ ^(٣) إِذَا هَبَّ مِرَا ^(٤)	وَارْمِ بِهِ إِذَا رَسَا
اسْكُنْ تَقْوَى ^(٥) فَعَسَى	يُسْعِفُ أَوْقَتُ نَكَسَا

وما نطق أبو زيد بهذا الشعر حتى سحر السامعين بآياته . وقد لا نعجب نحن الآن بهذه الشعوذة ، ولكنها كانت تعد غاية بعيدة عندهم في الإبداع الفني ، وكان الحريري يعرض عليهم منها ما يدل على تفوقه وإجادته وأنه يعد من أمهر اللاعبين وأكثرهم تجربة وحسنة .

ويدخل في هذه اللعبة أن نجده في المقامة السابعة عشرة ، وهي المقامة القهقرية ، يؤلف رسالة تُقرأ كلماتها من آخرها إلى أولها كما تقرأ من أولها إلى آخرها ، فهي ذات وجهين ، وتُنسَج على مِزَالَيْنِ إن شئت قرأتها كما تقرأ الصحف والرسائل من اليمين إلى اليسار ، وإن شئت عكستها ، فقرأتها من

(١) أُس : أعط . (٢) أَبْن : اقطع . (٣) اسر : أمر من السرو بمعنى الشرف والترفع عن مشاركة الناس في الخصومات والجدل . (٤) المرا : الجدال . (٥) تقو : تقوى وهو مجزوم في جواب اسكن .

اليسار إلى اليمين . وهي مجموعة من الحكم أخرجها في مائة كلمة على هذا النحو :
« الإنسان صنعة الإحسان » فأنت تستطيع أن تقرأ هذه العبارة « الإحسان صنعة
الإنسان » وهكذا بقية الرسالة ، فهي تقوم على الطرد والعكس في الكلمات
لا في الحروف .

ونمضي إلى المقامة السادسة والعشرين ، وهي المقامة الرقطاء ، فنجده قد
عدل عن تسميتها ببلد من البلدان إلى هذا الاسم الذي سماها به لأنها تتكون
من كلمات راعى فيها أن تتوالى حروفها بالتبادل بين الإعجام والإهمال ،
أو بين النقط وعدم النقط ، وهي تجرى على هذا النمط : « أخلاق سيدنا تُحَبَّبْ ،
وبعقوثه ^(١) يُلَبَّبْ ^(٢) ، وقربه تُحَفَّفْ ، ونأيه تَلَفَّفْ ، وخُلُصته ^(٣) نَسَبْ ،
وقطيعته نَصَبْ ، وغربه ^(٤) كَذَلَقْ ، وشهبه تأتَلَقْ ، وظلّه فُتْ ، زان ، وقويم
نهجه بان ، وذهنه قَلَسَبْ وجَرَّبْ ، ونعته شَرَّقْ وغَرَّبْ :

سيدٌ قُلُوبٌ سَبُوقٌ مُبِيرٌ ^(٦) فَطِنٌ مُغَرَّبٌ عَزُوفٌ عِيُوفٌ
مُخَلَّفٌ مُتَلَفٌ أَغْرُ فَرِيدٌ نَابَةٌ فَاضِلٌ ذَكِيٌّ أَنْزَفٌ ،

ويظل طويلا ، ينثر حيناً وينظم حيناً ، معبراً عن قدرته ومهارته في حشد
هذا النوع من الكلمات ، وكأنه طبّاع يصف حروفاً متلاصقة ، فتألف له
الألفاظ ، وكأنها صناديق متجاورة .

وكان حريصاً أن يذيع في مقامته هذه اللعبة الدقيقة التي لا يؤتاها في رأيه إلا
البارعون في فن النثر والشعر جميعاً ، فقد رجع يستخدمها في المقامة الثامنة
والعشرين ، وهي المقامة السمرقندية ، وفيها نرى أبا زيد يرتقي منبر مسجد ،
ويخطب في الناس خطبة ، كل كلماتها غير منقوطة ، من مثل قوله : « اعملوا —

(١) العقوة : الفناء . (٢) يلب : يلزم . (٣) خلة : صداقة .

(٤) الغرب : السيف ، وذلق : حاد . (٥) الظلف : العفاف . (٦) مبر :

رحمكم الله - عمل الصلحاء ، واكسحوا المعادكم كندح الأصحاء ، واردعوا أهواءكم ردع الأعداء ، وأعدوا للرحلة إعداد السعداء ، وادرعوا حملل الورع ، وداووا عيائل الطمع . . وادكروا الحمام وسكرة مصرعه ، والرمنس^(١) وهول مطلمعه ، واللحد ووحدة مودعه ، والمالك وروعة سؤاله ومطلعه .

وما يزال يتدفق بهذا الفيض العذب ، حتى يحكمها خطبة بديعة ، ولعله كان يفكر أثناءها أن يتفوق على ابن نبأته خطيب سيف الدواة المشهور ، فقد كانت خطبه تروع الناس ، وتناقلها الأدباء والرواة ، فأراد الحريرى أن يثبت أنه ليس أقل منه شأنًا في هذا الباب ، بل لقد ذهب يصعب المسالك على نفسه ، فهو لا يخطب على سجيته ، بل يلتزم السجع والبديع ، ولكن ذلك غير كاف في رأيه للدلالة على مهارته البيانية ، وإذن فليشتق على نفسه ، وليشترط في خطبته أن تكون من كلمات خاصة في اللغة ، هي الكلمات المهملة الحروف .

على أن مجال القول واسع في خطبة يوم الجمعة ، ومن هنا نراه يفكر في خطبة عسيرة يجرب فيها هذه اللعبة التي راقته ، وأي خطبة أعسر من خطبة الزواج . فإن المتكلم فيها يكون متخرجًا ، ولا يعدو أن يتحدث عن الخاطب ، وأنه كفؤ لخطيبته ؟ وذلك هو الذى دفعه في المقامة التالية للمقامة السابقة ، وهي المقامة الواسطية ، أن يطلب هذه الخطبة وأن ينشر فيها فنه ، ويذيع بضاعته على هذا النحو :

« الحمد لله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصور كل مولود ، ومآل كل مطرود ، ساطح المهاد ، وموطئ الأطواد ، ومرسل الأمطار ، ومسهل الأوطار ، عالم الأسرار ومدركها ، ومدبر الأملاك^(٢) ومهلكها . . طاوع^(٣) السؤل والأمل ، وأوسع المرمل والأرمل ، أحمده حمداً ممدوداً مداه . . . وهو الله لا إله إلا هو سواه ، ولا صادع^(٤) لما عدله وسواه ، أرسل محمداً علماً للإسلام ، وإماماً

(١) الرس : القبر : (٢) الأملاك : الملوك والدول .

(٣) طاوع : أجاب . (٤) صادع : صارف .

للحكام . . اعملوا - رعاكم الله - أصلح الأعمال ، واسلكوا مسالك الحلال ،
 واطرحوا الحرام ودعوه ، واسمعوا أمر الله وعُوه ، وصلوا الأرحام وراعوها ،
 وعاصوا الأهواء وادعوها ، وصاهروا لُحَمَّ الصلاح والورع ، وصارموا رَهْطَ
 اللهو والطمع ، ومُصَاهِرُكُمْ أظهر الأحرار مولداً ، وأسراهم ^(١) سُودُداً ،
 وأحلامهم مورداً ، وأصحبهم موعدا . . »

وما يزال يبدئ ويعيد في هذا النسج العاقل من النقط . ويظهر أنه لم يقتنع
 بهذه التجربة وما سبقها ، فعاد في المقامة السادسة والأربعين ، وهي المقامة الحلبية
 يعرض نماذج جديدة من الشعر ، بعضها منقوط ، وبعضها غير منقوط ، ومن
 مثال المنقوط قوله :

فَتَسَنَّنِي فَجَسَّنِي تَسَجَنِي ^(٢) بتجنُّ يفتنُّ غِبَّ تَسَجَنِي

وكانه رأى هذه النماذج دون غايته ، فصاغ نموذجاً تتوالى فيه كلمات
 الأبيات ، وإحداها منقوطة ، والثانية غير منقوطة على هذه الصورة :
 اسْمَحْ فَبْ السَّاحِ زَيْنٌ ولا تُخِبْ آملاً تَصَيِّفُ
 ولم يكفه هذا النموذج ، فأضاف إليه نموذجاً آخر يقوم على التجنيس
 الخطى بين الكلمات ، بحيث لو حذفت النقط منها تراءت متماثلة تمام التماثل من
 مثل قوله :

زَيْنَتْ زَيْنٌ بَقْدٌ يَقْدُ وتلاه ويلاه نَهْدٌ يَهْدُ

وكان هذا الجناس لم يبلِّغه كل أمنيته ، فذهب ينظم بيتين ، تتجانس
 فيهما فاتحتهما وخاتمتها إذ يقول :

سِمَ سِمَةً تحسنُ آثارها واشكُرْ مَنْ أعطى ولو سَمْسِمَةً
 والمكرُ مهما اسطعنتَ لاثاته لتقتنى السؤددَ والمكْرُمةَ

فهو يضيق على نفسه في اصطناع الجناس إذ يلتزمه في مطلع البيت وفي
 نهايته . كل ذلك ليدل على تفوقه . ولم يلبث أن أوغل في الغريب ، فأنشد

(٢) تجنى : اسم صاحبه .

(١) أسراهم : أشرفهم .

أبياتاً لما يشكل من الكلمات ذوات السين وأخرى لما يجرى على السين والصاد ،
وتتمادى فى مسائل لغوية عسيرة .

والحريرى فى هذا كله كأنه حاور من الحواة ، فهو يعرض ألعاباً وتمارين
هندسية غريبة ، أو قل إنه يعرض أفاعى البلاغة بأديعها الملوّن بالنقط والجناس
الخطى وغيرهما . ومن هذه الأفاعى وأجملها فى نفسه ورأيه أفاعى الأمثال ،
فقد حشا مقاماته بها ، وتفرّدت بعضها كأنها هى الغاية من تأليفها أو قل
هى الموضوع على نحو ما يرى القارئ فى المقامة التاسعة عشرة والسابعة والعشرين
والأربعين والسابعة والأربعين . غير أن من الحق أن نقول إن الحريرى لم يَسْمَعْ
فى ذلك كله فقد كان يحميه طبع حاد وإحساس دقيق باللغة ، فيزّ دائماً
الخبث من الطيب والجيد من الردىء ، فهما لعب ، ومهما أشكل بتارين فى
مقاماته فإنه لا يثقل . ولعل من خير الأمثلة على ذلك مقامته الثالثة والعشرين ،
وهى المقامة الشعرية ، وعنوانها يدل على ما أرادها بها من إعلان مقدّرتها فى النظم ،
وقد فكر وانتهى به تفكيره إلى نظم هذه الأبيات :

يا خاطب الدنيا الدنيّة إنها	شَرَكُ الرَّدَى وقَرارةُ الأَكْدارِ
دارٌ متى ما أضحكك فى يومها	أبكت غداً بُعْداً لها من دارِ
غاراتُها ما تنقضى وأسيرُها	لا يُفْتَدَى بجلائل الأخطارِ

واستمر حتى أتم قصيدة طويلة . وليس فى ظاهر الأبيات شىء ، ولكن
إذا أطلنا النظر فيها لاحظنا ما ابتغاه منها ، فإنه التزم فى داخلها قافية غير
القافية الخارجية ، بحيث يمكن أن تنشّد القصيدة كلها على هذا النمط :

يا خاطب الدنيا الدنيّة	ة إنها شرَكُ الرَّدَى
دارٌ متى ما أضحكك	فى يومها أبكتْ غداً
غاراتُها ما تنقضى	وأسيرُها لا يُفْتَدَى

ومن غير شك هذه المقامات كلها التى تحدثنا عنها إنما أراد بها الحريرى

إلى هذه اللعب الأدبية ، ولذلك زعمنا أنها الموضوع الحقيقي الذي أرادته منها فأبو زيد ليس إلا حيلة لعرضها وتصويرها وحبسك رسومها وبيان دقائقها .
وشاعت في هذا العصر الألغاز ، يُلغز الأدباء بكلمات أو بأوصاف لأشياء ،
يمتحنون بها ذكاء السامع ومدى حضور بديهته . ولعل ذلك ما جعل الحريري
يختص الألغاز بثلاث مقامات ، هي المقامات السادسة والثلاثون والثانية والأربعون
والرابعة والأربعون ، فكلها أُلغيت للتجاعي والمطارحة وامتحان الألفية ، في
استخراج المعاني الخفية . وقد شرحها الحريري بنفسه إما في متن المقامة ، وإما
بحاشية ألحقها بها مثل قوله :

وقادرين متى ما ساء صنْعُهُمْ أو قصَّروا فيه قالوا الذنبُ للخطِّب
فقد ألغز في قادرين إذ أراد بها الطابعين بالقدر ، ومن ذلك قوله :
وكاتبين وما خطَّتْ أنا ملهْمُ حَرَفًا ولا قرءوا ما خطَّ في الكتبِ
فقد ألغز في كاتبين إذ أراد بها الخرازين . وقد لا تعجبنا هذه الألغاز
اليوم ، ولكنها كانت مقياساً للذكاء عندهم ، وكان الكتاب والشعراء يتسابقون
في صنعها وإحكامها .

وعلى نحو ما جعل الألغاز موضوعاً لبعض مقاماته جعل النحو والفقه أيضاً
موضوعين لها ، ولم يتوسع في ذلك ، فقد خصَّ النحو بمقامة واحدة هي المقامة
الرابعة والعشرون وهي المقامة القطيعية ، بسط فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ،
أما الفقه فأفرد له مقامتين ، هما المقامة الخامسة عشرة المسماة بالفَرَضِيَّة ، تحدث
فيها عن مشكلة من مشاكل علم الميراث أو علم الفرائض وأنصبة الورثة ، وأثبت
حليها ، ثم المقامة الثانية والثلاثون التي سماها الطَّيْبِيَّة نسبة إلى طيبة وهي المدينة ،
وقد ضمَّنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها مفسَّراً في أثنائها الكلمات الغريبة .
ونحن نعرض على القارئ قطعة منها ليتبين كيف كان يجمع المسائل الفقهية
والإجابة عنها جمعاً ويرصُّها رصاً . ويعرض المسائل فقيهاً ويحييه أبو زيد
على هذا النحو .

« أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان ؟ قال : وهل أنظف منه للعربان (الثعبان جمع ثعب وهو مسيل الوادى) قال : أيسْتَباح ماء الضرير ^(١) ؟ قال : نعم وَبُجَسْتَب ماء البصير . (الضرير : حرف الوادى والبصير : الكلب) ... قال : فما تقول : فيمن تيمم ثم رأى رَوْضًا ، قال : بطل تيممه فليتوضأ (الروض : جمع روضة وهي الصُّبابة تبقى في الحوض) قال : أَيْصَلَّى على رأس الكلب ؟ قال : نعم كسائر الهَضْب (رأس الكلب : ثنية معروفة) قال : فإن حمل جِرْوًا وصلَّى ، قال : هو كما لو حمل باقِلًا ^(٢) (الجِرو : الصغار من القثاء والرمان) قال : أيجوز أن يؤمَّ الرجالَ مقنَّع ^(٣) ؟ قال : نعم ويؤمهم مدرَّع (المقنَّع : لابس المغفر ^(٤) ، والمدرَّع : لابس الدرع) قال : فإن أمَّهم من في يده وقف ؟ قال : يعيدون ولو أنهم ألف (الوقف : السوار من العاج) . . قال فإن أمَّهم الثور الأجم ؟ قال : صَلِّ وَخَلَاكَ ذَمٌّ : (الثور : السيد ، والأجم : الذى لا رمح معه) قال : أيدخل القَصْر ^(٥) في صلاة الشاهد ؟ قال : لا والغائب ^(٦) الشاهد (صلاة الشاهد : صلاة المغرب سميت بذلك لإقامتها عند طلوع النجم ، لأن النجم يسمى الشاهد) . . قال : فهل للمعرَّس أن يأكل في رمضان ؟ قال : نعم بملء فيه (المعرَّس : المسافر الذى ينزل في آخر ليله ليستريح ، ثم يرتحل) قال : فإن أفطر فيه العُرَّاة قال : لا تنكر عليهم الولاة (العراة : الذين تأخذهم العُرَّاء ، وهى الحُمَّى برعدة) قال : فإن أكل الصائم بعد ما أصبح ؟ قال : هو أحوطُ له وأصلح (أصبح : استصبح بالمصباح) : قال : فإن أكل قبل أن تتواري البيضاء ؟ قال : يلزمه والله القضاء (البيضاء : من أسماء الشمس) » .

(١) الضرير : الأعمى ، وليس ذلك المعنى المراد كما هو واضح .

(٢) الباقلاء : النبات المعروف باسم الرحلة . (٣) المقنَّع هنا : من يلبس القناع .

(٤) المغفر : رداء تضعه المرأة على وجهها وأصله سلاح الحرب يوقى به الرأس .

(٥) القصر : تقصير الفروض الرباعية بجعلها اثنتين . (٦) الغائب الشاهد : هو الله عز وجل لأنه يغيب عن أبصارنا ويشاهدنا ويطلع علينا .

ويسترسل الحريري في أسئلته وعرض أجوبتها، وواضح أنه يحتال في السؤال حيلة لغوية، فيذكر كلمة لها معنى مشهور، ويريد بها معنى لغويًا غير معروف. وبذلك يطرف قارئه، ويوسع معجمه اللغوي. فالمقامة لا يراد بها الفقه فقط، بل يراد بها اللغة أيضًا.

وعلى هذه الشاكلة كان الحريري يعنى في مقاماته باللغة، وحتى هو إن تركها إلى الفقه أو غيره لم ينسبها ولم يهملها، فهو «كإبرة البوصلة» يتجه إليها دائماً. ولعل ذلك ما جعله ينبذ عصره ومجتمعه، فليس في مقاماته منهما إلا ظلال خفيفة كأن يذكر دُبَيْسَ الأَسَدِي في المقامة العمانية، وكان أميراً في حِلَّةِ العراق لزمه، أو يذكر ظلم الولاة أو يصور بعض الأسواق أو بعض عاداتهم حينئذ، كاتخاذ العوذ والأحجية والتأمم، أو يصور بعض من يتظاهرون بالدين ويبطنون إلحاداً وضلالاً. غير أن هذا كله محدود بحيث إذا قلنا إن مقاماته ليست إلا شباكاً لصور من الكلمات لم نُبْعِدْ، ولم نكن من المغالين.

٤

الأسلوب

وضع الحريري مقامته على أسلوب البديع في مقامته من حيث الحوار المحدود بين الراوي والبطل، ومن حيث هذه الصيغة الثابتة في أول المقامة «حدثنا:». فمقامته تأخذ أسلوب القصة، وهي أكثر حبكة من مقامة البديع، ولكن لا تزال الغاية القصصية بعيدة عن الحريري، إذ لم يحاول فعلاً أن يقدم لنا قصة، وإنما حاول أن يقدم حديثاً فيه ما يشوق عن طريق أبي زيد، هذا الأديب الشحاذ الذي يظهر في مناظر مختلفة وبلدان مختلفة، وهو حديث لا يراد لذاته، وإنما يراد لعرض أساليب أدبية بديعة.

فالأسلوب هو غاية الحريرى من مقامته ، وإذن فمن الخطأ أن نطلب عنده كيان القصة الخي ، أو مدى تصويره للنفس الإنسانية ، فإنه لم يفكر فى شىء من ذلك ، إنما فكر فى أن يروع معاصريه بما يعرضه من الشكل الخارجى لمقامته ، وقد رأيناه يعتمد إلى منحرفات أدبية يسوق فيها بعض مقاماته ، إذ يعرض بعض الألعاب البلاغية التى كانت تروق عصره من مثل خطبة عاطلة من النقط ، أو قطعة شعرٍ حاليةٍ به ، أو رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها أو أبيات من الشعر تجرى على نفس المنوال .

وكل هذا عنده معناه أنه كان يحاول جاهداً أن يلائم بين عصره وبين مقامته فقد رأى الأدباء الذين سبقوه وعلى رأسهم أبو العلاء أوغلوا فى عقد مختلفة ، فلم يخرج عليهم ، بل حاول أن يجاريهم .

ومع ذلك فإنه قصر عقده أو أعباه على مقامات خاصة ، هى تلك التى عرضنا لها آنفاً ولم يحاول أن يغرق إلى أذنيه فى تلك العقد ، بل اختار منها أشياء خفيفة ، اقتصر فى تطبيقها على طائفة من مقاماته ، وترك بقيتها حرة غير مقيدة بهذه القيود الثقيلة ، ونستطيع أن نعرف مدى تخلصه فى الجملة من هذه الأعباء التى كان يروح تحتها أدباء عصره ، إذا وازنا بينه وبين أبى العلاء فى رسالة الغفران .

فنحن نجد عند الأخير ثقلاً ، ولا نستطيع أن نتقدم دائماً فى قراءته ، بل نقوم أمامنا حواجز اللغة ، إذ عسى أبو العلاء بأن تكون آثاره كأنها متون . وإذا انتقلنا فقرأنا فى كتابه « الفصول والغايات » وجدنا أنفسنا بإزاء غابات ملتفة ، كلها صعوبات وانحرافات عن الطرق الطبيعية فى الكتابة .

وكان الحريرى يرى تعلق معاصريه بمثل هذه الصورة ، فلم يستفها جملة من عمله ، بل استأثر بها ، ولكن فى بعض جوانب مقامته ، حتى يشب أنه لا يقل مهارة عن غيره ، بل إنه يتقدم كل معاصريه لو شاء أن يستخدم هذه الألعاب السحرية ، حتى الألغاز حاول أن يؤلف منها بعض مقامات ليسرى

الأدباء أنه يستطيع . أن يصبَّ في جميع القوالب ، وأن ينحت ما يشاء من تماثيل .

ثم تعود إليه نفسه أو تعود إليه طبيعته ، فإذا هو ينفر من تلك اللعب والتمارين ويعود إلى بديهته المطاوعة ، فيَرْضَى عِنانها ، ويسوق أسلوباً متحرراً من هذه الأثقال . ونقرأ فإذا بنا نقع على أجمل ما استطاع العرب في عصورهم الوسطى أن ينسجوه من صياغات بديعة .

وهي صياغات تقوم على السجع والتشديد في استخدامه ، إذ كان الأسلوب العام للكتابة ، ولكنه يأخذ منازل ، تارة تضاف إليه تعقيدات ، وتارة يخلو منها جملة ، وتارة ثلاثة ينزل منزلة وسطى بين الطرفين .

وخضع الحريري في سجعه لألوان البديع ، وللجناس خاصة ، ولكن لم يثقل عنده ، فقد كان يعرف كيف يسر النفس، ويشرح الصدر ، وكان لديه من الذكاء والإحساس بألفاظ اللغة ما جعله ينفي عن عمله كل غضاضة وكل ضيق . فما تقرأه حتى تشعر أنك ارتبطت به ، وأنه عقد بينك وبينه رابطة مودة ، لا لسبب إلا لأنه كان يعرف كيف يختار ألفاظه ، وكيف ينتخبها ، بحيث تلتئم مجموعاتها على نحو ما تلتئم الأنغام الصادرة عن آلات موسيقية مختلفة . ومقامة الحريري في الحقيقة تتفوق من هذه الناحية على كل ما خلفته لنا العصور الوسطى ، فقد انتهى صاحبها من حيث جمال اللفظ إلى القمة ، ووقف الأدباء والنقاد أمامه مشدوهين ، إذ وجدوا في أسلوبه حيوية نافذة .

ومرد هذه الحيوية إلى هذا الثوب المتوهج من السجع ، الذي لا نجد فيه نقصاً ، فقد فصله وقطعه وشأه ذوق رفيع ، كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة ، وكيف يشد اللفظة إلى أختها وكأنه عازف قيثارة .

وقد قالوا إنه أمضى تسع سنوات من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٠٤ يؤلف هذا العمل الفريد ، وهي ليست مدة كبيرة بجانب ما أودعه من إحسان وإبداع . وما أذاعه حتى تدافع عليه الطلاب من العالم الإسلامي ، وتراحموا ببابه على نحو

ما يتزاحم في عصرنا الناس على أبواب دور الحياة عند ظهور الممثلين الممتازين بأشخاصهم .

ومع ما يقوله في مقدمته من أنه وشحه بالآيات ومحاسن الكنايات ورصعّه بالأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة . مع ذلك كله لم تتصعّب الكتابة عنده ، ولم تتحول إلى ما يشبه السرايب المظلمة ، بل ظل لها رشاقة وخفة هي خفة أديب ، عشق مهنته ، واطلع على أسرارها ، وأذاعها في هذا الأسلوب الأخاذ ، الذي استعان في صوغه بسرعة خاطره .

ونحن لا نلاحظ هذه السرعة وحدها في تدفق الألفاظ عليه ، يختار منها أجودها ، وأحكمها ، وأدقها وأضبطها ، بل نلاحظها في شيء مهم هو تفتح ذهنه بالفكاهة ، حتى لا نبالغ إذا قلنا إنه طبع أسلوب مقامته بروح فكاهي ، وهو روح يسود في جوانب مختلفة في مقاماته ، وخاصة تلك التي يظهر فيها أبو زيد مع زوجته أو مع ابنه ، وقد اختصم مع أحدهما ، معممياً حقيقته ، ومرتفعاً إلى قاض أو وال أو صاحب شرطة ليفصل بينهما .

ويبرز هذا الروح الفكاهة في المقامة الثالثة عشرة ، وهي المقامة البغدادية ، وفيها يتراعى أبو زيد امرأة عجوزاً ، يتبعها أطفال ، وهي تستجدي لليتامى ، ناعية حظّها ، باكية أهلها وبعليها . وتتجلّى الفكاهة أقوى ما تكون في المقامة الثلاثين ، وهي المقامة الصّورية ، وفيها نرى الحارث بن همام يشهد عقد زواج لعروس من آل ساسان أصحاب الكدية والشحاذة ، ويعقد العقد شيخهم المفضل أبو زيد السروجي ، وهي تجري على هذا النمط :

« حكي الحارث ابن هَمَّام ، قال : ارتحلت من مدينة^(١) المنصور إلى بلدة صُور^(٢) ، فلما حصلت بها ذا رفعة وخَفَضُ^(٣) ، ومالك رَفَعِ

(١) مدينة المنصور : بغداد ، لأنه بناها . (٢) صور : بلدة على ساحل لبنان .

(٣) خفض : نعمة .

وَحَفِظْتُ^(١) ، تَقُتُّ إِلَى مِصْرَ تَوَقَّانَ السَّقِيمَ إِلَى الْأُسَاةِ^(٢) ، وَالكَرِيمَ إِلَى
 الْمُوَاسَاةِ ، فَرَفِضْتُ^(٣) عِلَاقِي^(٤) الْإِسْتِقَامَةَ ، وَفَرَفِضْتُ عَوَاقِقَ الْإِقَامَةِ ،
 وَاعْرُورَيْتُ^(٥) ظَهَرَ ابْنِ النَّعْمَةِ^(٦) ، وَأَجْفَلْتُ^(٧) نَحْوَهَا إِجْفَالِ النَّعْمَةِ ،
 فَلَمَّا دَخَلْتُهَا بَعْدَ مَعَانَاةِ الْأَيْنِ^(٨) ، وَمَدَانَاةِ الْحَيْنِ^(٩) كَلَفْتُ بِهَا كَلَفَ
 الشَّوْثَانِ بِالْإِصْطِبَاحِ^(١٠) ، وَالْحِيرَانِ بِتَنْفَسِ الصَّبَاحِ . فَبَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا بِهَا أَطُوفُ ،
 وَتَحْتِي فَرَسٌ قَطُوفٌ^(١١) ، إِذْ رَأَيْتُ عَلَى جُرْدٍ^(١٢) مِنَ الْحَيْثِيلِ ، عُصْبَةً
 كَصَابِيحِ اللَّيْلِ ، فَسَأَلْتُ لِانْتِجَاعِ^(١٣) التَّزْهِيَةِ ، عَنْ الْعُصْبَةِ وَالْوَجْهَةِ ،
 فَقِيلَ : أَمَا الْقَوْمُ فَتَاهُودُ ، وَأَمَا الْمَقْصِدُ فِيمَلَاكٌ^(١٤) مُشْهُودُ ، فَحَدَّثَنِي
 مَسِيْعَةُ^(١٥) النَّشَاطِ ، عَلَى أَنَّ سِرْتُ مَعَ الْفَرَّاطِ^(١٦) ، لِأَفُوزَ بِحَلَاوَةِ اللَّقَاطِ^(١٧) ،
 وَأُحْزِرَ حَلَاوَةَ السَّمَاطِ^(١٨) ، فَأَفْضَيْتُنَا بَعْدَ مَكَابِدَةِ الْعَنَاءِ ، إِلَى دَارِ رَفِيعَةِ
 الْبِنَاءِ ، وَسِيعَةِ الْفَنَاءِ ، تَشْهَدُ لِبَانِيهَا بِالثَّرَاءِ وَالسَّنَاءِ . فَلَمَّا نَزَلْنَا عَنْ صَهَوَاتِ^(١٩)
 الْحَيُولِ ، وَقَدْ مَنَّا الْأَقْدَامَ لِلدَّخُولِ ، رَأَيْتُ دِهْلِيزَهَا مَجْدَلًا^(٢٠) بِأَطْمَارِ^(٢١) مَخْرَقَةٍ ،
 وَمَكْدَلًا بِمَخَارِفِ^(٢٢) مَعْلَقَةٍ ، وَهَنَّاكَ شَخْصٌ عَلَى قَطِيفَةٍ ، فَوْقَ دَكَّةٍ لَطِيفَةٍ ،
 فَرَانِي^(٢٣) عُنْوَانُ الصَّحِيفَةِ ، وَمَرَّأَى هَذِهِ الطَّرِيفَةِ^(٢٤) ، وَدَعَانِي التَّطْيِيرُ بِتِلْكَ

-
- (١) الرفع والحفظ : الإِعْلَاءُ وَالْحِطُّ . (٢) الأساة : جمع آس وهو الطبيب .
 (٣) رفضت : تركت . (٤) علائق : أسباب .
 (٥) اعروريت الدابة : ركبها . (٦) ابن النعامة : اسم فرس في الجاهلية .
 (٧) أجفلت : أسرعت ، ويضرب المثل بالنعامة في السرعة . (٨) الأين : الثعب .
 (٩) الحين : الموت والهلاك . (١٠) الاصطباح : شرب الخمر في الصباح .
 (١١) قطوفه بطيء . (١٢) الجرد : جمع أجرد ، وهو قصير الشعر ، وذلك من صفات
 الخيل الكريمة . (١٣) انتجاع : طلب . (١٤) إملاك : تزويج . (١٥) ميعة
 النشاط : سوره وحدته . (١٦) الفراط : جمع فارط وهو الذي يسبق القوم إلى الماء والكلاء .
 (١٧) اللقاط : ما يلتقط في العرس . (١٨) السباط : الخوان الممدود في الولائم .
 (١٩) صهوات : ظهور . (٢٠) مجدلا : مغطى . (٢١) أطمار : غرق
 وثياب بالية . (٢٢) المخاوف : جمع مخوف ، وهو الزنبيل الذي يضع فيه الشحاذ طعامه .
 (٢٣) رابني : شككتني ، وكئي بعنوان الصحيفة عما رآه بادئ بدء . (٢٤) الطريفة : العجيبة .

المناحس^(١) إلى أن عمدت لذلك الجالس ، فعزمتُ عليه بمصرف الأقدار ،
 لَيْسَ عَرَفَنِي مَنْ رَبُّ هَذِهِ الدَّارِ ؟ فقال : ليس لها مالكٌ معيّن ، ولا صاحبٌ
 مبين ، إنما هي مَصْطَبَةُ الْمُقَيِّفِينَ^(٢) ، والمُدْرُوزِينَ^(٣) ، ووليجة^(٤)
 المُشَقِّقِينَ^(٥) ، والمُجَلِّدِينَ^(٦) ، فقلتُ في نفسي : إنا لله ! على ضلّاة
 المسعّى ، وإمّحال^(٧) المرعّى ، وهَمَمْتُ في الحال بالرّجوعي ، لكنني
 استهجنْتُ العودَ من فَوْرِي والقهقرة^(٨) دون غيري ، فولّجتُ^(٩) الدارَ متجرّعا
 الغصص ، كما يَلْجُ العصفورُ القفص ، فإذا فيها أرائك^(١٠) منقرشة ، وطنافس^(١١)
 مفروشة ، ونمارق^(١٢) مصفوفة ، وسجوف^(١٣) مرصوفة ، وقد أقبل المُمْلِك^(١٤)
 يَمِيسُ^(١٥) في بُرْدَتِهِ ، وَيَتَبَهَّهَسُ^(١٦) بين حَفْدَتِهِ^(١٧) ، فحين جَلَسَ
 كأنه ابنُ ماء السماء^(١٨) ، نادى مُنَادٌ من قِبَلِ الْأَحْمَاءِ^(١٩) : وَحُرْمَةٌ
 ساسان أستاذ الأستاذين ، وقُدْوَةُ الشّحّاذين ، لا عَقَدَ هذا العقدَ المَبْجَلُ ،
 في هذا اليومِ الأغرِ المَحْجَلُ ، إلا الذي جال وجاب^(٢٠) ، وشبَّ في الكُدْيَةِ
 وشاب . فأعجب رهطُ الصّهر ما أشار إليه ، وأذِنوا في إحْضارِ المنصوص^(٢١)
 عليه . فبرز حينئذ شيخٌ قد أَمَالَ المُلُوان^(٢٢) قامته ، ونوّرَ الفَتَيَانِ ثَغَامَتَهُ^(٢٣) .

(١) المناحس : الأحوال المنحوسة . (٢) المقيفين : الشحاذين .

(٣) المدروزين : أصحاب الحرف الدنيئة . (٤) وليجة : مدخل .

(٥) المشققين : المتفاحصين بالكلام وهم أهل الكدية والشحاذة . (٦) المجلوز :

اصطلاح عند أهل الكدية لمن يتحدث منهم عن فضائل الصحابة . (٧) إمحال : جذب .

(٨) القهقرة : الرجوع . (٩) ولجت : دخلت . (١٠) أرائك : أسرة

(١١) طنافس : بسط . (١٢) النمارق : الوسائد . (١٣) سجوف : ستائر .

(١٤) المملك : العروس . (١٥) يَمِيس : يتبختر .

(١٦) يتبهس : يَمِيس . (١٧) الحفدة : الخدم والأتباع ، جمع حافد . (١٨) ابن

ماء السماء : ملك من ملوك الحيرة في الجاهلية وهو المنذر بن النعمان . (١٩) الأحماء : الأقارب

للزواج والزوجة . (٢٠) جاب الطرق : قطعها . (٢١) المنصوص عليه : هوشبغ أهل

الكدية المذكور آنفاً . (٢٢) الملوان : الليل والنهار وكذلك الفتیان .

(٢٣) ثغامته : شبيه وأصل الثغامة : شجرة ذات زهر أبيض .

فتباشرت الجماعة بإقباله ، وتبادرت إلى استقباله ، فلما جلس على زُرِّيَّتِهِ^(١) ،
وسكنت الضوضاء لهيبته ، ازدلف^(٢) إلى مَسْنَدِهِ ، ومسحَ سَبَلَتِهِ^(٣) بيده ،
ثم قال :

الحمد لله المبتدئ بالإفضال ، المبتدع^(٤) للنَّوَالِ^(٥) ، المتقرب إليه
بالسؤال ، المسؤول لتحقيق الآمال ، الذي شرع الزكاة في الأموال ، وزجر
عن نَهْرٍ^(٦) السؤال ، وندب^(٧) إلى مواساة المضطر ، وأمر بإطعام القانع^(٨) .
والمُعْتَرَّ^(٩) ، ووصف عباده المقربين في كتابه المبين ، فقال وهو أصدق
القائلين ، والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم^(١٠) ، أحمدته على
ما رزق من طُعْمَةٍ هَسِيَّةٍ ، وأعوذ به من استماع دعوة بلانيَّة ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً يجزى المتصدقين والمتصدقات ، ويمحق
الربا ويربِّي^(١١) الصَّدَقَات ، وأشهد أن محمداً عبده الرحيم ، ورسوله الكريم ،
ابتعثه لينسخ الظلمة بالضياء ، وينتصف للفقراء من الأغنياء ، فرفق صلى
الله عليه وسلم بالمسكين ، وخفف^(١٢) جناحه للمستكين ، وفرض الحقوق
في أموال المُشْرِينَ ، وبيَّن ما يجب للمُثْقَلِينَ على المكثرين ، صلى الله عليه
صلاة تحظيهِ بالزُلْفَةِ^(١٣) ، وعلى أصفائه أهل الصَّفَةِ^(١٤) . أما بعد فإن
الله تعالى شرع الزواج لتتعفَّفوا ، وسنَّ التناسل لكي تتضاعفوا ، فقال
سبحانه لتعرفوا : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم

(١) الزرية : بساط منقوش . (٢) ازدلف : اقترب .

(٣) السبلة : اللحية . (٤) المبتدع : المبتدئ .

(٥) النوال : العطاء . (٦) نهر : زجر . (٧) ندب : حرص وحبب .

(٨) القانع هنا : السائل . (٩) المعتَر : الذي يتعرض للسؤال ولا يسأل .

(١٠) المحروم : الذي حرم الرزق . (١١) يربي : يزيد وينمي .

(١٢) خفف الجناح : كناية عن التواضع . (١٣) الزلفة : القرب من الله .

(١٤) أهل الصفة : جماعة من المهاجرين جعلهم الرسول ضيوفاً على الإسلام لفقهم وحاجتهم .

شعوبًا وقبائل لتعارفوا) . وهذا أبو الدَّرَّاج^(١) ولأَج^(٢) بن خَرَّاج ، ذو الوجه
الوقاح ، والإفك الصَّرَّاح^(٣) ، والهرير^(٤) والصباح ، والإبرام^(٥) والإلحاح ،
يخطب سَلِيطة^(٦) أهلها ، وشريطة^(٧) بَعْلِيها ، قَسْبَسَ بنت
أبي العَسْبَس ، لما بلغه من التحافها بإلحافها^(٨) ، وإسرافها في إسفافها وانكماشها
على معاشها ، وانتعاشها عند هراشها^(٩) ، وقد بذل لها من الصَّدَاق^(١٠) شلاقًا^(١١)
وعُكَّازًا ، وصقاعًا^(١٢) وكِرَّازًا^(١٣) فزَوَّجوه زواج مِثْلِه ، وصدُّوا حَبْلَهُمْ
بِحَبْلِه ، وإن خفتم عَيْلَةً^(١٤) فسوف يغنيكم الله من فضله ، أقول قولي هذا
وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، وأسأله أن يُكثِر في المصاطب نَسْلَكُمْ ، ويحرس
من المعاطب شَمْلَكُمْ .

فلما فرغ الشيخ من خطبته ، وأبْرَم^(١٥) للختنِ^(١٦) عَقْدَ خطبته^(١٧) ،
تساقط من النِّشَار^(١٨) ، ما استغرق حَذَّ الإكثار ، وأغْرَى الشَّحِيحَ بالإيثار^(١٩) ،
ثم نهض الشيخ يَسْجَحُ ذِلَّاهُ^(٢٠) ، وَيَقْدُمُ أَرَاذِلَه^(٢١) . قال الحارث
ابن هَسَّام :

فتبعته لأنظر عُرْجَةَ^(٢٢) القوم ، وأكْمِلَ بِهَجَّةِ اليوم ، فعاج^(٢٣) بهم

(١) سماه هذا الاسم كناية عن أنه كثير الدرج والسعى في الطلب .

(٢) أراد أنه كثير الولوج والخروج في الشحاذة . (٣) الإفك الصراح :

الكذب الواضح . (٤) الهرير : متابعة الصباح . (٥) الإبرام : الإثقال .

(٦) السليطة : اللحاحة طويلة اللسان . (٧) شريطة بعلمها : يريد أنها على وفق

زوجها . (٨) إلحاف : الإلحاح . (٩) الهراش : الخاصة .

(١٠) الصَّدَاق : المهر . (١١) الشلاق : الخلاة . (١٢) الصقاع : الخرقه تضعها

الشحاذة على رأسها . (١٣) الكراز : الكوز وقيل القارورة . (١٤) العيلة : الفقر .

(١٥) أبْرَم : أحكم . (١٦) الختن : الصهر . (١٧) الخطبة : بكسر الخاء طلب

التزويج . (١٨) النشار : الدراهم التي تثر في العقد . (١٩) الإيثار : التفضل واليذل .

(٢٠) الذلال : أسافل الثوب . (٢١) أَرَاذِلَه : يريد أنه يتقدم من معه من الأراذل .

(٢٢) عرجة : وقفة . (٢٣) عاج : مال .

إلى سماء زينتته طُهاته ، وتناصفت^(١) في الحسن جهاته ، فحين رَبع^(٢) كلُّ شخص في رِبْضَتِهِ ، وطفق يَرتع^(٣) في روضته ، انسَلَلْتُ من الصفِّ ، وفرتُ من الزَّحفِ .

فحانت^(٤) من الشيخ لَفْتَتَهُ إِلَى ، ونظرةٌ هجم بها طَرَفُهُ عَلَى ، فقال لى : إلى أين يا بَرَم ؟ هلا عاشرت معاشرَةً من فيه كَرَم ، فقلت : والذي خلقها^(٥) طباقا ، وطَبَّقَهَا^(٦) إشراقا ، لا ذقتُ لَمَاقا^(٧) ، ولا لُسْتُ^(٨) رُفَاقا ، أو^(٩) تخبرنى أين مَدَبُ صَبَاك ؟ ومن أين مَهْبُ صَبَاك^(١٠) ؟ فتفنَّسَ الصَّعْدَاءَ مراراً ، وأرسل البكاءَ مِدْرَاراً^(١١) ، حتى إذا استنزف الدَّمْعَ ، استنصت^(١٢) الجَمْعَ ، وقال لى : أرعنى^(١٣) السَّمْعَ :

مَسْقَطُ الرَّاسِ سَرَجٌ ^(١٤)	وبها كنتُ أموجٌ ^(١٥)
بلدةٌ يوجدُ فيها	كلُّ شئٍ وبروجٌ ^(١٦)
ورْدُها من سلسيل ^(١٧)	وصحاريها مَروِجٌ ^(١٨)
وبنوها ومغانيب	هم نَجـومٌ وبروج
حَبِئْدَا نَفْحَةٌ رِيًّا	ها ومرآها البهيجُ
وأزاهيرُ رُبَاهَا	حين تنجَابُ ^(١٩) الثلوج
من رآها قال : مَرَسَى	جَنَّةِ الدُّنْيَا سَرُوجٌ

(١) تناصفت : تماوت .

(٢) ربع : جلس ، والربضة : مكان الجلوس . (٣) يرتع : يأكل .

(٤) حانت : اتفقت . (٥) يريد خلق السموات بعضها فوق بعض .

(٦) طبقها : ملأها . (٧) اللماق : القليل من الأكل والشرب . (٨) لست :

طعمت . (٩) أو هنا بمعنى إلا أن . (١٠) الصبا : ريح لينة . يريد من أين يجيئك .

(١١) مِدْرَاراً : غزيراً . (١٢) استنصت : طلب إِنْصَاتِ الجمع . (١٣) أرعنى :

السمع : ألق إلى بسمعك . (١٤) مَروِج : بلد أبى زيد التى ينسب إليه . (١٥) أموج :

أضطرب وأتحرك . (١٦) يروج : يتيسر . (١٧) السلسيل : العذب البارد .

(١٨) المروج : البساتين . (١٩) تنجَاب : تنزاح وتنفرك .

ولمن يتزاحُ عنها زَفَرَاتٌ ونَشِيحٌ (١)
 مثلُ ما لا قيتُ مُدْزَحٌ زَحْنِي عنها العُلُوجُ (٢)
 عَبْرَةٌ تَهْمِي (٣) وشَجْوٌ كلما قَرَّ (٤) يتهيج
 وهمومٌ كلَّ يومٍ خَطَبْتُهَا خَطْبَ مَرِيحٍ (٥)
 ومساعٍ في الترجي (٦) قاصرات الخَطْوِ عِوَجُ
 ليتَ يومي حُمٌ (٧) لما حُمٌ لى منها الخروجُ

قال : فلما بَيَّنَّ بلده ، ووعيتُ ما أنشده ، أيقنتُ أنه علاءُ متنا أبو زيد ، وإن كان الهرمَ قد أوثقه بقيد ، فبادرتُ إلى مصافحته ، واغنمتُ مؤاكلته (٨) من صحفته (٩) . وظللتُ مدةً مقامى بمصر أعشُو (١٠) إلى شُواظه (١١) ، وأحشو صدقي (١٢) من دُرَرِ ألفاظه ، إلى أن نَعَبَ (١٣) بيننا غرابُ البَيِّن ، ففارقته مفارقة الجَحْنِ للعيَّن .

وواضح أن المقامة كلها بنيت بناءً فَكِيهَةً ، ولا يكاد الإنسان يملك نفسه من الضحك حين يبدأ أبو زيد خطبة الزواج ، ويستهلها بما يشير إلى عَوَزِ العروسين ، ويأخذ في بيان ما حضَّ الشارع عليه من الزكاة والصدقات . وما زال يذكر الفقراء وما لهم من حقوق على الأغنياء .

ثم ينتقل إلى الخطبة أو إلى الموضوع فيعرف أهل العروس بالعروس ويقلم لهم شحاذاً وقحاً يكثر من الهزير والصياح ، ويتحدث عن زوجته ، فإذا هي من طينته . ويذكر المهر ، وكله من أدوات القوم وآلاتهم . ولا يلبث أن يدعو

(١) النشيج . البكاء مع الصوت العالى .

(٢) العلوج : جمع عِلَج ، وهو الضخم من العمم والروم ، وهو يريد هنا الروم الذين استولوا على سروج في بعض حروبهم ، وكان ذلك في زمن الحريري مؤلف المقامة .

(٣) تهى : تسيل غزيرة . (٤) قر : سكن . (٥) مريج .

مختلط لا يعرف وجه الخلاص منه . (٦) الترجى : الرجاء . (٧) حم : قضى وانتهى .

(٨) مؤاكلته : الأكل معه . (٩) صحفته : إناءه الذى يأكل فيه . (١٠) أعشُو :

أقصد . (١١) الشواظ : لهب النار . (١٢) صدقي : يريد أذن . (١٣) نعب : صاح . المقامة

لهم بزيادة النسل الذى سترجع فوق المصاطب ، مفتوح الأكف للشحاذة والسؤال .

ولا نشك فى أن هذا الأسلوب الفكه فى المقامات الحريرية كان أحد الأسباب المهمة فى ذبوعها وإقبال الناس عليها فى عصره وبعد عصره ، لأنهم وجدوا فيها ما يسليهم ويرفئه عنهم ، ويعينهم على احتمال أعباء الحياة ، ويحطّ عنهم بعض أثقالها .

على أننا نلاحظ أن الحريرى لم يقصد بفكاهته إلى شىء من تقويم النفس وتربيتها ، وإنما قصد إلى الهزل والترفيه من حيث هما . ففكاهته فارغة من الفكرة ومن العمق والتحليل ، ومع ذلك فنحن نؤمن بذكائه وبقظة ذهنه وسرعة خاطره . ولا تظهر سرعة خاطره فى فكاهته وحدها ، بل تظهر أيضاً فى تدفق الألفاظ عليه ، وتدفق الأساليب والعبارات المنتقاة ، وكأنما نخّل كتب الأدب نخلا ، واصطفى لنفسه منها أروع ما وجده فيها من صياغات ، وهى صياغات لا تتحول إليه حتى يشتد بريقها ولمعانها بفضل ما كان يصقل فيها ، بل بفضل ما كان يضيف إليها من حليات الصوت وتنميقات البديع .

والحريرى لا يبارى فى انتخاب ألفاظه واختيار كلماته ، ولذلك كانت مقاماته فى رأى السابقين أبدع ما أنتجته العصور الوسطى ، وقد ظلت لها مكانتها السامية ، وظلت الأعناق تمتدّ إليها فلا تطوّلها ، إذ انتهت صاحبها إلى ذروة سامقة من ذرى الفن العربى .

وقد اتخذها الأدباء من عصره إلى عصرنا قبلتهم وكعبتهم ، فهم ينهلون منها ، وهم يوقّرونها ويحلمونها ، ويرون فيها آية الأدب الرفيع . ولم يكتف الحريرى فيها بأساليب النثر المنمقة ، بل ذهب يوشىها أيضاً بأساليب الشعر ، فلأها بالأبيات والمقطوعات ، التى تلمع وتتألق فى صحفها ، وقد بسّ فيها كثيراً من الحكم والنصائح التى تهدى فى دياجير الحياة .

وهذا كله هو الذى يستر صعوبات المقامة عنده ، فما جاء به من ألعاب بلاغية ، وشعوذات لغوية أو فقهية أو نحوية أو أَلغاز ومعمِّيات ، كل ذلك تغمره أساليبه المنمقة البهيجة ، فلا يشلّ الحركة عنده . بل لا نزال حتى عصرنا نتملّى بجمال ألفاظه وصياغاته ، كما كان يتملى بها معاصروه ومن جاءوا بعده ، ولا نزال نعدّها أجمل ميراث لغويّ ورثناه عن كُتّابنا السالفين .

مقامات مختلفة

١

على مر التاريخ

ليس الحريرى أول من حاول تقليد بديع الزمان فى صنْعُ المقامة ، فمن قبله حاول ذلك أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا المتوفى سنة ٤٨٥ .

وطُبعت لابن نايقا تسع مقامات ، ومن يقرأها يراه يتخذ بطلها شخصاً يسميه الإشكرى ، أما الرواة فتعددون . وهى تدور فى أكثرها على الكُدْية ، ولكن ليس فيها جمال اللفظ الذى نجده عند البديع أو عند الحريرى ، ولعلها من أجل ذلك لم تشتهر فى الناس .

وكأن القدر اذْخر الحريرى لينهض بهذا الفن إلى القمة التى كانت تنتظره ، بحيث إننا لا نجد بعده من استطاع أن يخلّق معه فى الأفق الذى صعد إليه ، فقد ظهر دائماً وبرز للعيان أن أجنحة الأدباء الذين حاولوا تقليده لم تكن من القوة والمتانة بحيث يستطيع أصحابها أن يرتفعوا إلى الأجواء العليا التى دوّم فيها وسبّح فى طبقاتها .

وربما كان أول من حاول تقليده فى إصرار هو أبو الطاهر محمد بن يوسف السَّرْقَسْطى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فقد اطلع على مقاماته ، فأنشأ خمسين مقامة معارضة لها أتعب فيها خاطره ، وكدّ ذهنه وأسهر ناظره ، وصعب على نفسه المسالك فيها ، فالتزم فى نثرها ونظمها ما لا يلزم من تعدد القوافى واشترائط أن تكون من حرفين فأكثر . واتخذ راويته فيها المنذر بن حمام وجعل بطلها السائب ابن تمام . وسقطت هذه المقامات من يد الزمن فلم تصل إلينا .

وفى نفس التاريخ نجد الزمخشري يؤلف مقامات تدور كلها على الوعظ ،
وليس فيها راو ، ولا بطل ، بل يبدوها بخطاب نفسه ، وما يزال يعظ مذكراً
بالآخرة ، رادعاً النفس عن شهواتها ، خاصاً لها أن تسلك السبيل السوى الذى
يؤدى بها إلى الفوز بنعيم الله ورضوانه . ويبدو أنه لم يكن فى ذهنه أن يقلد
مقامات الحريري ، فقد كان يقول :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَمَشَعَرَ الْحَجِّ وَمِيقَاتِهِ
إِنَ الْحَرِيرِيَّ حَرِيٌّ بَأَن نَكْتُبَ بِالتَّبِيرِ مَقَامَاتِهِ

وكل ما فى المسألة أنه استعار منه الاسم ليطبقه على مجموعة من المواعظ .
ونتقدم فى القرن السادس فنجد الحسن بن صافى المصرى الملقب بملك النحاة
يُصَنِّفُ مقامات على نسق المقامات الحريرية ، ويصنع صنيعه أبو العباس
يحيى بن سعيد بن مارى النصرانى الطبيب . واشتهرت مقاماته باسم المقامات
المسيحية ، قال ياقوت فى معجمه : إنه أجاد فيها . وفى نهاية القرن نجد ابن
الجوزى يؤلف خمسين مقامة فى موضوعات أدبية مختلفة ، ويسمى بها نحو
الوعظ على نحو ما سعى الزمخشري فى مقاماته ، وكان يعاصره أبو العلاء أحمد
ابن أبى بكر بن أحمد الرازى الحنفى الذى ألف ثلاثين مقامة طُبعت فى إستانبول
مع مقامات ابن نايقا فى مجلد واحد ، ونراه يقول فى مقدمتها إنه ألفها لقاضى
القضاة أبى حامد محمد بن محمد بن القاسم الشَّهْرَزُورِي ، وإنه سيحتذى فيها
على مثال بديع الزمان والحريرى وسمى راويتها الفارس بن بسَّام المصرى وبطلها
أبا عمرو التنوخى . ونراه يقلد الحريري فى بعض ألعابه الأدبية كأن ينظم شعراً
كلُّ ألفاظه من ذوات الشين أو الصاد أو العين ، أو ينظم مقامة كل ألفاظها
من ذوات الطاء . وقد يجعل المقامة فى وصف حمَّام أو محبرة أو دواة أو قلم
أو فرس أو معركة . وهو فى ذلك كله يثقل على النفس والأذن بما يستخدم
أحياناً من كلمات نابية أو موهلة فى الغرابة .

ونمضى فى القرون التالية للقرن السادس فتكثر المقامات ، ويكثر المقلدون ،

ويتسع الموضوع الذى تخوض فيه ، فقد يكون الحديث والفقه والنحو كما فى مقامات ابن الصيقل الجَزَرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وعدتها خمسون ، نسب روايتها إلى القاسم بن جريرال الدمشقى وحوادثها إلى أبى نصر المصرى . وقد يكون الموضوع وصف الحيوانات مثل مقامات ابن حبيب الحلبيّ المتوفى سنة ٧٧٩ وقد يكون وصف البلدان مثل مقامات ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ .

وربما كانت مقامات السيوطى المتوفى سنة ٩١١ أشهر المقامات التى صنف فى العصور الوسطى المتأخرة ، وهى أشبه ما تكون بالرسائل ، فليس فيها بطل ولا راو ، إنما هى رسائل مسجوعة ، قد تتحدث فى موضوع خيالىّ مثل أنواع الطيب وفوائد كل نوع ومفائده ، وأنواع الرياحين والزهور ودفاع كل نوع عن نفسه . وقد تتحدث فى موضوع جدلىّ مما يتناقش فيه الفقهاء مثل أبوى الرسول وحكمهما فى البعث والجزاء ، ومثل صوفية ابن الفارض وما اتهمه به خصومه . وقد تتحدث فى موضوع اجتماعى كالرخاء والغلاء . وهى بهذه الصورة أبحاث مسجوعة . وقد ملأها السيوطى بالحديث النبوىّ وبالمعلومات من جميع الفنون طبية وغير طبية . وما تزال اللغة العربية تستقبل هذه الألوان المختلفة من المقامات حتى يخرج العصر الحديث ، فيحاول غير واحد تقليد الحريرىّ ، ومن أشهر من قلده فى القرن الماضى الشيخ حسن العطار فى مصر والألوسىّ فى العراق وفارس الشدياق وناصرى اليازجى فى الشام .

ويجب أن نعرف أن تأثير الحريرى لا يقف عند من قلده فى تأليف المقامات بل يمتد إلى كثيرين من الكتّاب ، ممن قلده فى طريقته . ولعل هذا التأثير الثانى أعمق من التأثير الأول ، لأنه يشيع فى أعمال أدبية مختلفة . ويكفى أن نذكر أن كتّاب العرب المحدثين ممن نسمع بهم فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن طبعوا جميعاً أساليبهم بطوابعه . وما « ليالى سطيح » لحافظ إبراهيم و « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى إلا ثمرة من ثمار تقليد الحريرى والضرب على نموده فى الأسلوب والصياغة .

مقامة اليازجي

إنما نقف عند هذه المقامة لأن صاحبها نال بها قَصَبَ السبق لا بين معاصريه حسب ، بل بين كل من جاءوا بعد الحريري ، إذ عرف كيف يقلده ، وكيف يُحكّم هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً .

وقد ولد ناصيف اليازجي سنة ١٨٠٠ م لأب طبيب على مذهب العرب في الطب ، وكان كاثوليكيّاً يقيم بكفر شيا في لبنان بالقرب من بيروت . وعهِدَ إلى أحد القساوسة في القيام على تربية ابنه ، وعكف ناصيف على المكتبات في الأديار فنهل منها ما استطاع .

وكان فيه ذكاء والمعية ، فلم يلبث أن نبغ في الشعر ، وعلى عادة عصره كتب قصيدة في مديح الوالي ، وهو الأمير بشير الشهابي ، ووفد عليه ، وألقاها بين يديه فأعجب به ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ألحقه بديوانه . فمكث فيه حتى عزل الأمير سنة ١٨٤٠ .

وحينئذ نراه ينزل في بيروت ، ويعرّف فضله ، فتناديه المدارس المختلفة للعمل بها كما تنتدبه الكلية الأمريكية ، ويراجع الترجمة التي نشرتها للكتاب المقدس . وما يزال عاكفاً على التدريس من جهة والتأليف من جهة ثانية حتى يلبي نداء ربه سنة ١٨٧١ .

ومن يرجع إلى مؤلفاته يقف على مدى ثقافته ونوعها إذ يراه يؤلف في النحو مختصراً أسماه « طوق الحمامة » ، كما يؤلف أرجوزة قصيرة أسماها « الباب في أصول الإعراب » وأرجوزة طويلة أسماها « جوف الفـرا » ، وكتب عليها شرحاً أسماه « نار الفـرا في شرح جوف الفـرا » . ويراه يؤلف في الصرف أرجوزة قصيرة أسماها « لمحّة الطرف في أصول الصرف » وأرجوزة طويلة أسماها « الخزنة » وكتب

لها شرحاً أسماه « الجُمَانَة في شرح الخزانة » . ويؤلف في الفنين معاً « الجوهر الفرد » ، وفصل الخطاب في أصول لغة الإعراب » . ويؤلف في العروض « الجامعة » وهي أرجوزة تتناول مصطلحاته ، وشرحها بما أسماه « الالامعة في شرح الجامعة » ، ويؤلف في علوم البلاغة « عقد الجمان » ، والطرارز المعلم » كما يؤلف في الطب أرجوزة أسماها « الحَجَر الكريم في الطب القديم » .

وإنما ذكرنا هذا كله لندل على أن ناصيف ثَقَفَ العلم العربي كما كان يفهم في عصره وقبل عصره ، فهو قد ألمَ إلماماً دقيقاً بكل المعارف العربية ، ولم يكتف بذلك ، بل ألف فيها على طريقة القدماء مختصرات وأراجيز وشرحاً . ولما نشر المستشرق الفَرَنْسِي « سَلْفِستِر دى ساسى » مقامات الحريري أرسل له رسالة طويلة ذكر له فيها أغلاطه في نشرته . وحظيت هذه الرسالة بتقدير الناشر وغيره من المستشرقين ، وترجمت إلى اللغة اللاتينية .

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة آمنت بالثقافة العربية . ولم يفكر ناصيف في أن يتقن لغة من اللغات الأجنبية ، ولعله كان يحتقر هذه اللغات ، ويرى اللغة العربية كافية في ثقافة الأديب وتخريجه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم موقفه وحياته في عصره ، فهو قانع بالعرب وثقافتهم ، وهو ابن بار بهم ، وبار بلغتهم ، لا يكاد يتصور فوقها لغة ، فهي أفضل اللغات ، وأدبها أفضل الآداب .

ونظر ، فوجد خير النماذج الأدبية فيها الشعر والمقامات ، فكتب غير قليل من الشعر ، ثم خلاص للمقامة ، فقرأ لمقامات الحريري ، وما استحدثه الأدباء من بعده ، وما زال يكُدُّ ذهنه حتى صاغ مقامتهم . وأسماها « مجمع البحرين » أخذنا من الآية الكريمة في القرآن : (وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح ، حتى أبلغ مجمع البحرين) ويريد بالبحرين النظم والنثر .

ولم يكتب خمسين مقامة فقط كما كتب الحريري ، بل زاد عليه عشراً ، واتخذ راوية هوسهيل بن عباد وبطلا هو ميمون بن خزام ، وهو أديب

شَحَّاذ من نوع أبى زيد السَّرُوجىّ وأبى الفتح الإسكندرى . وألصق به فى كثير من المقامات ابنته « ليلى » وغلامه « رَجَبَا » على نحو ما صنع الحريرىّ بأبى زيد إذ عرضه فى كثير من مقاماته ، وهو يتشاجر مع زوجته أو مع تلميذه وتابعه . وقدَّم لعمله بمقدمة ، اعترف فيها متواضعاً بِقَصَرِّ باعه عن الحريرىّ . وبدى الزمان ، وسمّى صنيعه ضرباً من الفضول . ثم انساب بين مقاماته مرقماً لها على نحو ما رقم الحريرى ، ومتخذاً لها أسماء من البلدان غالباً ، واشترك معه فى غير اسم . ونفس الصورة التى عُرِضَ فيها ميمون تكاد تكون بذاتها صورة أبى زيد فأحاييل الأخير ومكايده وطرق تنكُّره ، كل ذلك يطبَّق تطبيقاً على ميمون .

ونراه فى المقامة الأولى يعرف بين الراوى والبطل ، بالضبط كما حاول الحريرىّ فى مقامته الأولى . فسهيل بن عباد يملّ الحضر ويميل إلى السفر ، ويمتطى ناقه ، وما يزال يضرب فى الفلاة حتى يهجم الليل ، فيرى ناراً مشبوبة وخيمة مضروبة فيميل إليها وينادى مَنْ القوم ؟ ويجيبه شخص :

إنى ميمونُ بنى الحِزامِ وهذه ليلى ابنتى أُمى
نعم وهذا رجبٌ غلامى من رام أن يدخل فى ذمى
يَأْمَنُ مَنْ بوائق الأيام

ويتم التعارف بينهما . ثم تكون المقامات بعد ذلك ، ويتردّد اللقاء والفراق بين الراوى والبطل حتى نصل إلى المقامة التاسعة والخمسين ، وهى المقامة المكية ، وهناك بين المناسك والمشاعر يرى سهيل بن عباد ميموناً وابنته وغلامه ، ويصحبه إلى زيارة المدينة ، ويلاحظ عليه شيئاً من التغير ، إذ يراه يخطب فى الناس واعظاً منذراً ، صادقاً فى إنذاره ووعظه . ويختم ميمون خطبته بهذا الدعاء : « اللهم يا سابع الآلاء ، ونابع الإيلاء^(١) ، هبْ لنا قلوباً طاهرة ، وعيوناً ساهرة ، وأنفُساً عفيفة ، وأنسناً حَصِيْفَةً ، وأخلاقاً سليمة ، ونيّات مستقيمة ،

وَيَسِّرْ لَنَا تَوْبَةً صَادِقَةً ، وَنَدَامَةً خَازِنَةً . وَسِيرَةً هَادِيَةً ، وَعَيْشَةً رَاضِيَةً ، وَعَاقِبَةً حَمِيدَةً ، وَخَاتِمَةً سَعِيدَةً . . . » .

وواضح أنه في هذا الدعاء يطلب التوبة من ربه ، ويندم على ما قَدَّمَ من ذنبه . وبذلك يُعَدُّنا إليازجيَّ للإشراف على الحلقة الأخيرة من مقاماته . وفي المقامة التالية الستين ، وهي المقامة القدسية ، يلتقي سهيل بن عباد بصاحبه في المسجد الأقصى ، والناس قد تجمَّعوا عليه ، وهو يعظهم ويحذرهم عذاب النار ، وسوء عِقْبَى الدار . وينظر إلى راويته ، فيذكر ما ارتكب من الأوزار ويتوب إلى الله توبةً نصوحاً ويخفى عن الأبصار . حتى إذا جَنَّ الليل سمعه سهيل ينشد :

قم في الدُّجَى يا أيها المتعبدُ	حتى متى فوق الأسرةِ تَرَقُدُ
قم وادع مولاك الذى خلق الدجى	والصبحَ وامض فقد دعاك المسجدُ
واستغفر اللهَ العظمَ بذلَّةَ	واطلبْ رضاه فإنه لا يحقدُ
واندمَ على ما فات وانذبْ ماضى	بالأمس واذكُرْ ما يحىء به الغدُ
واضرعَ قل : يا ربَّ عفوك إنسى	من دون عفوك ليس لى ما يعصُدُ

ويستمر في الدعاء والتضرع لربه لا يَفْتُر ولا يَمَلّ ، فيعلم سهيل أنه قد تحولَ عن حاله ، ويلزمه شهراً ثم يودعه . وكان ذلك آخر عهدهما باللقاء .

ولعل القارئ قد لاحظ أن إليازجيَّ في هذا كله يحاكي الحريريَّ ، فهو يبدأ مثله بالتعريف بين الراوى والبطل في المقامة الأولى ، وما يزال يتيح الفرصة للقائهما ، حتى يتجرد البطل عن عَرَض الدنيا ، ويندم على فعله ، ويتوب إلى ربه . ونفس التواضع الذى نلقاه عنده في فاتحة مقاماته وخاتمتها إنما يقلد فيه الحريريَّ تقليداً واضحاً .

خصائص وصفات في المقامة اليازجى

لا نبالغ إذا قلنا إن مقامة اليازجى تقليد دقيق لمقامة الحريرى ، فهى تطابقها من جميع الوجوه ، تطابقها في صورة الراوى والبطل ، وتطابقها في أن البطل أديب متسول ، وتطابقها في أساليب تنكره وخصوماته مع ابنته وغلामه ، وما يكون هناك من قاض ينظر في الخصومات .

وتطابقها أيضاً في الصياغة ، فهى تدور بين السجع والشعر ، وإن كنا نلاحظ أن الحريرى يتفوق في الطرفين جميعاً ، فسجعه أخف ، وشعره أرشق ، وكأن المادة اللغوية دُلت له بأقوى وأروع مما دُلت لليازجى ، على الرغم من أنه حاول أن يكون صورة منه .

ولسنا نريد أن نرى على عمل اليازجى ، ولا أن نقول إنه كان صورة سيئة للحريرى ، فاعل لغتنا لم تعرف مقلداً لعمل فى مهر فى تقليده وبلغ منه كل ما أراده على نحو ما عرفت ذلك عند صاحبنا ، فقد عرف كيف يصوغ نموذجاً على نموذج الحريرى ، ويظفر لنفسه بجملة الخصائص والصفات الحريرية . حتى القرآن الكريم الذى اقتبس الحريرى منه اقتباساً واسعاً جاراه فيه اليازجى ، وربما تفوق عليه فى كثرة ما اقتبس منه بل إن اسم مقاماته استعاره كما مرّ بنا من لفظ القرآن . وقد جعل بطله يتوب فى مكة ثم فى المدينة والمسجد الأقصى .

وكان اليازجى يتخلّى عن كل شىء فيه ليصنع المقامة بالذوق الحريرى وعلى السنن التى وضعها لها . حتى عصره لا نجد له أى صدق فى مقامته ، وكذلك البلدان التى اقترحها لها أسماء لا نجد لها أى أثر فى عمله ، فليكن اسم المقامة الشامية أو المصرية أو اللبنانية . فهذا الاسم لا يعنى عنده شيئاً ، إنما هو

بصدد صورة أدبية عامة يعرضها ، وتصادفت أن الحريرى وبديع الزمان من قبله سميا مقاميهما باسم البلدان ، فاستنّ سنتهما واتبع قاعدتهما .

وبنى الحريرى كثيراً من مقاماته على المواعظ والأدعية فتبعه اليازجى فى غير مقامة يعظ ويذكر ، ويدعو الناس إلى العمل الصالح ، ورفض الدنيا ومتاعها ، وانتظار ما عند الله وثوابه ، والأمل فى جنته ورضوانه . يقول فى المقامة المعربة على لسان ميمون ، وقد وقف بين الجماهير خطيباً :

« اعلّموا أن الله قد أرسلنى إليكم نذيراً ، وأقامنى بينكم سراجاً منيراً ، لا تُذكركم يوماً عبوساً قَمَطَ رِيراً^(١) ، فلا تغفلوا عن ذكر شُرْبِ تلك الكاس ، وهَوِّلْ ذلك اليوم المجموع له الناس ، واتعظوا بمن تقدمكم من القرون والأقوان ، ومن درج أمامكم من العيون والأعيان ، وتوبوا إلى باريكم واندموا على ما فات ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، واعتمدوا حفظ الفروض والسنن ، ولا تسكروا على خضراء الدمن^(٢) ، فإن المحافظة على الصلوات ، لا تفيد من يستبج الشهوات فى الخلوات ، ومُكابدة الصوم ، لا تنفع من يؤذى القوم ، وتجشّم الحج والعُمرة^(٣) ، لا يُزكى شارب الخمر ، فليس البير أن تولوا وجوهكم شَطَطَ المسجد الحرام ، ولكن البير من اتقى ، والسلام .
وواضح فى هذه القطعة كثرة ما استعاره اليازجى من القرآن الكريم ، ولم يحاول أن يستعير عباراته فقط ، بل حاول أن يجعل ألفاظه قراراً لصياغاته . وهو فى هذا كله إنما ينسج على منوال الحريرى ، وقد ذهب يكثر مثله من الأمثال والحكم ، بل حاول أن يتفوق عليه فى هذا الجانب ، فنشره فى عمله بأوسع مما نشره صاحبه ، وجعله موضوعاً لبعض مقاماته كما فى المقامة الحكيمية والأدبية .
ويظهر أنه أعجب إعجاباً شديداً بألعاب الحريرى البلاغية التى تحدثنا

(١) قطريراً : شديداً . (٢) خضراء الدمن : ما يخضر فى المنبت السرى من النبات ، وهو مثل ، أى لا تقتروا بما قد يزهر فى التربة الحبيشة ، كناية عن زخارف الدنيا .
(٣) العمرة : الحج الأصغر .

عنها آنفًا ، فاحتذى على طريقته فيها ، وصبَّ على قوالبه . والمقامتان :
الخامسة عشرة والعشرون هما المسرح الذى اختاره اليازجى ليظهر عليه هذه
الألعاب السحرية . أما المقامة الأولى فأودعها قصيدة كل أبياتها عاطلة من
النقط ، وثانية كل أبياتها منقوطة ، أو بعبارة أدق كل حروف أبياتها حالية
بالنقط . وليس هذا حسب ، فقد أنشد قصيدة الشطر الأول منها خالٍ من
النقط والثانى حال به من مثل :

لا لعهود الودِّ راعٍ ولا فى شَجَنٍ ذى فتنة يُشْفِقُ

فحروف الشطر الأول كلها مهملة من النقط ، وحروف الشطر الثانى كلها
معجمة ، وهكذا بقية القصيدة . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب ينظم أبياتاً تتألف
على الترتيب من كلمة معجمة وأخرى مهملة من مثل :

لا تَفَى العهد فتَشْفِينِي ولا تُنْجِزُ الوعدَ فتُشْفِي العِلَلَا

ثم أتبعها أبياتاً تتألف كلماتها من حروف تتعاقب بين الإهمال والإعجام .
وكأنما أحسَّ أنه لا يزال فى حدود الألعاب الحريرية ، وهو يريد أن يثبت
مهارته ، فابتكر نوعاً سماه عاطل العاقل . وفيه اشترط على نفسه أن لا تكون
الحروف التى تتكوّن منها الأبيات مهملة فقط ، بل يكون مسمى الحرف حين
ننطق به خالياً من النقط أيضاً ، فالحرف « دال » ينطبق عليه الشرط بخلاف
حرف « عين » . وعلى هذا القيد نظم قطعة من هذا النمط :

وله صَوْلٌ وطَوْلٌ وله صَدٌّ ورَدٌّ

وكل ذلك ليبرهن على مقدورته الفنية ، وأنه لا يقل عن الحريريّ افتناناً ولعباً
بالألعاب والعقول :

وأما المقامة العشرون فأودعها لعبة مالا يستحيل بالانعكاس ، تلك اللعبة
التي ابتدعها الحريريّ ، والتي راعت معاصريه ومن جاءوا بعده حتى عصر
اليازجى ، وهى تجرى على هذا المثال :

قَمْرٌ يُفْطِرُ عَمْدًا مُشْرِقٌ رَشٌّ مَاءٌ دَمْعٌ طَرَفٌ يَرْمُقُ
إِذْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْرَأَ الْبَيْتَ مِنْ آخِرِهِ كَمَا تَقْرَأُهُ مِنْ أَوَّلِهِ ، فَلَا تَخْتَلِفُ
[الفاظ ولا يختلف المعنى . وكأن اليازجى أحس أنه مسبوق بهذه اللعبة الحريرية ،
فرأى أن يضيف إليها شيئاً ، وإذا هو يصل فى بيتين يؤلفهما إلى أنهما إن قرئتا
مستقيمين كانا مدحاً على هذا النحو :

بَاهِي الْمَرَحِمِ ، لَا بَيْسٌ كَرَمًا ، قَدِيرٌ مُسْنَدٌ
بَابٌ لِكُلِّ مُؤْمَلٍ غُنْمٌ لِعَمْرِكَ مُرْفِدٌ
فَإِنْ أَنْتَ عَكَسْتَهُمَا وَقَرَأْتَهُمَا مِنْ آخِرِهِمَا إِلَى أَوَّلِهِمَا أَصْبَحَا هَجَاءً وَذَمًّا عَلَى
هَذِهِ الشَّكْلَةِ :

دَنْسٌ مَرِيدٌ (١) قَامِرٌ (٢) كَسَبَ الْحَارِمِ لَا يَهَابُ
دَفِيرٌ (٣) مِكْرٌ مُعَلَّمٌ (٤) نَغِيلٌ (٥) مُؤْمَلٌ كُلٌّ بَابٌ (٦)
وَكَّرَرْ هَذِهِ اللَّعْبَةُ فِي الْمَقَامَةِ الرَّجَبِيَّةِ . وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا فِي الْمَقَامَةِ
التَّغْلِيْبِيَّةِ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ هُوَ أَنْ تَقْرَأَ كَلِمَاتٍ قِطْعَةً مَدِيحٍ مَصْحَفَةً فَإِذَا هِيَ
هَجَاءٌ . مِثْلًا هَذَا الْبَيْتُ :

لَا تُعْرِفُ الْأَقْدَارُ فِيهِمُ وَالرَّيْبُ وَلَا يِبَالُونُ بِالْحَرَازِ النَّسَبِ (٧)
يُصَحِّفُ وَيَحَرِّفُ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ :
لَا تُعْرِفُ الْأَقْدَارُ فِيهِمُ وَالرُّتَبُ وَلَا يِبَالُونُ بِأَحَرَازِ النَّسَبِ
وَلَيْسَ مِنْ رَيْبٍ فِي أَنَّ الْيَازْجِيَّ كَانَ فَطِنًا مُنْتَهَى الْفُطْنَةِ ، وَإِلَّا مَا اسْتَطَاعَ
أَنْ يَصِلَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ اللَّعْبِ الَّتِي كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرِجَهَا مِنْ صَنْدُوقِهِ اللَّغْوِيِّ
كَلِمًا ابْتِغَى ذَلِكَ أَوْ أَرَادَهُ .

(١) مرید : عاقى . (٢) قامر : مقامر . (٣) دفر : دنس .
(٤) مكر : محارب . (٥) معلم : عليه سمة الحرب أى أنه يريد الشر دائماً .
(٦) نغل : فاسد . (٧) النشب : المال .

وقد رأى الحريريَّ يعتمد إلى الألفاظ في بعض مقاماته ، فحاكاه أيضاً في هذا الجانب ، وعرضه مرة أو قل مرتين شعراً ، ومرة أخرى نثراً . أما الشعر ففي المقامة اللغزية والمقامة الحلبية . ومن ذلك هذا اللغز في القمر :

ومولودٌ بدون أبٍ وأمٍّ بلا قوتٍ يعيشُ ولا يموتُ
له وجهٌ وليس له لسانٌ فيُخبرنا ويلزمه السكوتُ

وأما الألفاظ النثرية فنثرها في المقامة الحمويّة ، وقد أظهر فيها تفنناً ومهارة . ونظر فوجد الحريريَّ يخص النحو والفقه بثلاث مقامات ، فعرض لمسائل فقهية في مقامته الإسكندرية ، ولكن في قلة ، وأشرك معها مسائل لغوية وبلاغية ، أما النحو فأثبت ، وهو المؤلف النحوي الكبير صاحب الأراجيز القصيرة والطويلة فيه ، أنه يبذل الحريريَّ في التصنع له والتكلف لجمع مشاكله وطرحها ، تارة في صُور عبارات تقرأ بعض الكلمات فيها بجميع الحركات الثلاث كما في المقامة البغدادية ، وتارة بعرض أسئلة مختلفة كما في المقامة الكوفية والبحرية والسودانية . وعنى في المقامة الدمشقية بأن يرينا مقدّرتَه على نظم قواعد النحو ، فأشد فيها أرجوزة طويلة .

ولعل القارئ قد لاحظ أنه بالغ ، وشقَّ على نفسه بعرض كل ذلك في مقاماته ، وكان حريّاً به أن ينسحب إلى الشلالات أو قل هذه العوائق عن طريقه ، ولكنه ظنها تحفة الفن ، فاعتنقها وبالغ في استخدامها حتى لتصبح بعض مقاماته كأنها متون لبعض العلوم .

وليس علم النحو وحده هو الذي ظفر منه بهذه المبالغة ، فربما كان علم اللغة يتفوق عليه إذ خصَّ اليازجيَّ به اثنتي عشرة مقامة ، نظم فيها كثيراً من الأسماء الخاصة ببعض الموضوعات ، وهي أسماء تفيدنا في معرفة معلومات كثيرة عن العرب وحياتهم قبل الإسلام وبعده . ونضرب لذلك مثالا المقامة السادسة ، وهي المسماة بالخرزجية ، فإننا نجد فيها ميمون بن خزام يُسأل عن أسماء المطاعم ، | فيجيب :

لنَفَسَاءِ الْحُرُسِ^(١) وَالْعَقِيقَةِ^(٢) لِلطِّفْلِ^(٣) عِنْدَ عَارِفِ الْحَقِيقَةِ^(٤)
 كَذَلِكَ الْإِعْذَارُ لِلْخِثَانِ^(٥) وَاللَّخْطَبَةِ^(٦) الْمَلَاكُ^(٧) ، وَالْوَلِيمَةِ^(٨)
 وَلِلْبِنَاءِ جَعَلُوا الْوَكِيرَةَ^(٩) وَقِيلَ تَحْفَةَ^(١٠) لَزَائِرٍ يَرْدُ^(١١)
 كَذَا نَقِيعَةُ الْقُدُومِ مِنْ سَفَرٍ^(١٢) وَحَيْثَا لَمْ يَكْ مِنْ ذَاكَ سَبَبٌ^(١٣)
 وَإِنْ تَعَمَّ دَعْوَةٌ فَالْجَفَلَايَ^(١٤) تُدْعَى^(١٥) ، وَإِنْ خَصَّتْ فَتِلْكَ النَّقَرَى^(١٦)

وواضح أنه لم يترك اسماً لطعام يتخذ في مناسبة إلا حشده في هذه الأبيات ،
 وَيُسْأَلُ مِيمُونَ عَنْ نِيرَانِ الْعَرَبِ ، فَيُنْشَدُ :

أَوَّلُ نَارٍ عِنْدَهُمْ نَارُ الْقِرَى^(١٧) وَذِكْرُ نَارِ الْوَسْمِ^(١٨) بَعْدَهَا جَرَى^(١٩)
 وَنَارُ الْأَسْتِسْقَاءِ^(٢٠) وَالتَّحَالِفِ^(٢١) وَالصَّبِيدِ وَالْحَرْبِ لَدَى التَّزَاوِفِ^(٢٢)
 وَنَارُ غَدَرٍ وَسَلَامَةٍ تَعْدُ^(٢٣) وَنَارُ رَاحِلٍ كَذَا نَارُ الْأَسَدِ^(٢٤)
 وَالنَّارُ لِلْسَّلِيمِ^(٢٥) وَالْفِدَاءِ^(٢٦) فَجَمَلَةُ النِّيرَانِ هَؤُلَاءِ^(٢٧)

وهذا إحصاء دقيق لنيران العرب ، فلم يترك ميمون نارا إلا أحصاها . وَيُسْأَلُ
 عَنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ ، فَيَقُولُ :

أَوَّلُ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ هِيَ الْبُكُورُ وَالْبَزُورُ طَارَ^(٢٨)
 وَالرَّأْدُ وَالضُّحَى الْمُسْتَوْعُ بَعْدُ^(٢٩) ظَهِيرَةٌ^(٣٠) ثُمَّ الزَّوَالُ عَدَّ وَ

(١) الحرس : طعام الولادة . (٢) كانوا يعدون العقيقة عند خلق شعره .

(٣) الخذاق : اسم الطعام الذي كانوا يصنعونه حين يتم الطفل حفظ القرآن .

(٤) القرى : الضيافة . (٥) الوسم : هي النار التي توقد ليحموا بها الميسم الذي

يسمون به الإبل . (٦) الاستسقاء : دعاء وصلاة يقوم بها المسلمون حين يغيب عنهم المطر .

(٧) نار الأسد : نار توقد له حتى ينفر ويفر . (٨) السليم : الملدوغ .

(٩) يقال إن العرب كانوا يضيئون هذه النار إذا سبيت نساء منهم . (١٠) طار : حادث .

فالعصرُ فالأصيلُ ثم الطَّفَلُ وبالحدُور والغروب تكمل
ويُسأل عن ساعات الليل ، فينشد :

أول ساعة من الليل الشَّفَقُ وبعدها العَشَوَةُ يتلوها الغَسَقُ
فهذِ أَهْ تُنْمَتُ شَرَعٌ ثم قُلُ جُنُحٌ وَزُلْفَةٌ هَزِيعٌ يَارَجُلُ
وبعد ذاك غَبَشٌ وَسَحَرٌ والفجرُ والصبح الذي ينفجرُ

وكأنما كان اليازجي معجماً حياً ، فهو حافظ لغرائب اللغة وشواردها ، بل
إن اللغة قد توزعت عنده على أثبات ، في كل ثَبَت مجموعة منها . وانظر إلى
ميدون يُسأل عن رياح الجهات فيجيب :

ما هبَّ من شَرْقٍ فذلك الصَّبَا ثم الجَنُوبُ عن يمينٍ ذهبا
ثم الشَّمَالُ والدَّبُورُ وجِئَتْ نَكْبَاءُ بين كل ريحين سَرَتْ
فذلك الأَزِيبُ ثم الصَّابِيَةُ فالهَيَافُ ثم الجَرَبِيَاءُ آتِيَةٌ (١)

ويعجب السائل ، ويقول له : قد جلوت الرموز ، وفتحت الكنوز ، فهل
تعرف أيام بَرْدِ العجوز ، فينشد :

صِنْ وَصَبَبَرُ وَوَبَرٌ يُدْكَرُ وبعده الأَمِرُ والمؤَمَّرُ
كذا معلَّلٌ ومُطْفِئُ الجَسَمَرِ هَاتِيكَ أيامَ العجوزِ فادِرِ
فيقول السائل : حَيِّيتَ يَا قُطْبَ الْعِرَاقِ ! فما أسماء خيل السباق ؟ فيجيبه :
أولُ سابقٍ هُوَ المُجَلَّتِي ثم المُصَلَّتِي بعده المُسَلَّتِي
تالٍ ومرتاحٌ عليه يَقْبَلُ والعاطفُ الحَظِيُّ والمؤَمَّلُ
كذلك اللطيمُ والسُكَيْتُ فاحفظ فما أُعْطِيَتْ قَدْ أُعْطِيَتْ

وهكذا تنتظم المقامة الخزرجية كل هذه المسائل اللغوية ، وكأنه لا يريد
بمقامته أن يعلم التلميذ الأسلوب الأدبي حسب ، بل هو يقصد قصداً إلى تعليمه

(١) يشير في البيت إلى أن الأزيب : ريح بين الصبا والجنوب ، أما الصابية فين الصبا
والشمال ، وأما الهيف فين الجنوب والدبور ، وأما الجرياء فين الشمال والدبور .

اللغة وعويصها وما لا يعرفه إلا خاصة الخاصة . . وليست المقامة الثالثة عشرة بأقل حشداً من هذه المقامة الخرجية لمسائل اللغة ، وقد بدأ فيها بنظم مشاهير العرب الذين، ترسّسَ بهم الأمثال من مثل السموعل ووفائه وحاتم وجوده ومعن بن زائدة وحلمه وقس وفصاحته ، ثم ينتقل فينظم مشاهير الخيل عندهم على هذه الشاكلة :

أشهرُ خَيْبِلِ العرب المشهَرُ	ثم النعامةُ التي لا تنكسرُ
وداحسُ منهن والغبراءُ	كذلك الخطَّارُ والخنفاءُ
وأعوجُ ولاحتُ سَكابُ	كذلك العُبيدُ والعُقَابُ
كذا العصَا وأمثها العُصِيَّةُ	وكم لهم أمتاً وكم بُسْيَّةُ

وكل فرَس من هذه الأفراس كانت ملكاً لبطل أو شيخ من شيوخ العرب أو ملك من ملوكهم ، واستقصاها اليازجى استقصاء . ولم يلبث أن أنشد أبيات العرب من مثل الحِباء والخيمة والفسطاط ، كما أنشد ألوان طعامهم وأسماء آنيتهم . ولم يكتف بذلك ، فقد أنشد أيضاً أزلام الميسر وهي القداح التي كانوا يتخذونها للقمار ، يقول :

فَدَتْ وَتَوَّأَمَ رَقِيبُ نَافَسُ	وَالْحِلْسُ وَالرَّابِعُ قَبِيلُ الْخَامِسُ
كذلك المُسْبِلُ والمُعَلَّى	مما على النصيب قد تولَّى
ثم السَّفِيحُ والسَّفِيحُ الوَغْدُ	ليس لها إلى النصيب رُشْدُ

ومعروف أنها عشرة قداح وقد أسماها كلها ، وأشار إلى أن الثلاثة الأخيرة لا يكون لها حظ مقسوم ، والسبعة الأولى يكون لها نصيب معلوم ، كما أشار إلى ترتيب الرواة للنفس وأن منهم من قال هو الرابع ومنهم من قال بل هو الخامس . ونمضى إلى المقامة التاسعة عشرة فنجده ينظم أيام العرب وحروبهم في الجاهلية ، ثم نتقدم إلى المقامة السادسة والثلاثين ، وهي المسماة بالطائية فنجد حاسته اللغوية تعود إليه ، ويعود معها نظمه للأسماء المتشابهة ، وهو يبدأ ذلك

بِعَرَضِ أَسْمَاءِ الْجَمَاعَاتِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ يَقُولُ :

زُجْلَةٌ^(١) نَاسٍ حَاصِبُ الرَّجَالِ هَكَذَا كَوَكْبَةٌ الْحَيَالُ
رَهْطُ رَجَالٍ لُئِمَةُ النِّسَاءِ رَعِيلٌ خَيْلٌ وَقَطِيعُ الشَّاءِ
وَرَبْرَبُ الْمَهْمَا^(٢) صَوَارُ الْبَقَرِ حَبِيلَةٌ مَعَزٌ عَانَةٌ مِنْ حُمُرٍ
وَصِرْمَةٌ مِنْ إِبِلٍ وَعَرَجَالَةٌ مِنْ السَّبَاعِ قَدْ حَكَمْتُهَا النَّقْلَةُ
خَيْطُ النِّعَامِ وَمِنْ الْجَرَادِ رَجُلٌ وَسَرْبٌ مِنْ ظَبَاءِ الْوَادِي
وهَكَذَا عَصَابَةُ الطَّيْرِ وَرَدٌ وَخَشْرَمُ النَّحْلِ تَتِمَّةُ الْعَدَدِ

ويخرج من ذلك إلى نظم عدو الخيل ومراتبه من مثل الخبب والتقريب والإحضار ، ثم ينظم مراتب سير الجمال من مثل الديب والذمل والرسم والوحد والإرقال . ثم ينتقل فينظم أنواع المشى للإنسان والحيوان ، فالصبي يدرج والشيخ يدلّف والفتى يخطر والمرأة تمشي والرجل يسعى والرضيع يحبو والفرس يجري والغراب يحجل والنعام يهّج ، ثم يذكر ترتيب جماعات العسكر ، فينشد :

أَقْلُ جَمْعُ الْعَسْكَرِ الْحَرِيدُ وَبَعْدَهَا السَّرِيَّةُ الْمَزِيدُ
وَفَوْقَهَا كَتَيْبَةُ تَمِيسُ فَالْحَيْشُ فَالْفَيْلَتُ فَالْخَمِيسُ

ثم ينشد مراتب النخيل من مثل الفسيلة لصغرى النخل ، ثم القاعدة والعيدانة ، ثم الباسقة ، ثم السحوق الشاهقة . ولا يكتفى بذلك بل ينظم أيضاً ثمر النخل وأسماءه على الترتيب ، فأوله طَلْعٌ ثم سَيَابُ فَخَلَالُ فَبَغْوٌ فَبُسْرٌ .

وعلى هذا النحو تتحول المقامة إلى ما يشبه متنا من متون اللغة ، وهو متن على الطريقة المعروفة عند العرب إذ حوّلوا معارفهم إلى أراجيز ، وكان لليازجي أراجيز مختلفة . وهو يطبق هذا اللون من نظم المعارف في مقاماته ، فإذا جوانب منها تتحول إلى متون للحفظ والتسميع .

ولا يكتفى بما قدم في المقامتين السابقتين من مثل هذه المعارف ، فنحن نراه

(١) واضح أنه يجعل الجماعة من الناس عامة زجلة ، أما من الرجال فحاصب وأما من الخيالة فكوكبة ، وهلم جرا . (٢) المها : بقر الوحش .

في المقامة الثامنة والثلاثين ينظم مراحل الحياة الخاصة بالرجل ، فهو جنين في الحشأ ، ثم طفل ثم صبي ثم غلام ثم يافع ثم فتى . وكذلك ينظم مراحل الصفات الخاصة بالمرأة وما يخصها دون الرجل فهي كاعب وناهد ونصف وكهله وعانس . وينظم أشكال الإشارة فالإنسان يثير باليد ويومئ بالرأس ويومض بالحنن ويغمر بالحاجب ويرمز بالشفاه ويلبس بالثوب ويلوح بالكم . ويتنقل إلى ترتيب المطر ، فأواه الطل وبعده الرذاذ ثم النضج ثم الهطل ثم الوايل المنهل . أما الأنهار فأصغرها الجداول ثم السرى ثم الجعفر . وأما الجبال فأصغرها النسبكة ثم الراية ثم الأكمة فالزبسة فالنجدوة فالقف فالحضبة ، وأما الغبار فالخاص منه بالحرب يسمى القسطل وأما العشير فخاص بغبار الأرجل ، وما يثيره الحافر يسمى نقعاً ، وما تهيجه الريح يسمى عجاجاً . وما يزال حتى يذكر أنواع الحيوط ، فللخرز السلك وللجوهر السمط ولحيط الإبر النصح والبناء الزيج . ونمضي إلى المقامة الحادية والأربعين المسماة بالتهامية فنجدته ينظم الأصوات التي وضعتها اللغة لمختلف الأشياء ، وهو يستهل ذلك بقواه :

هزيرُ رِيحٍ وحفيفُ الشجرِ هزيمُ رَعْدٍ ودوىُ المطرِ
وسواسُ حِلْيَةٍ صليلُ النَّصْلِ قلقلةُ المِفْتَاحِ ضَمْنُ القِفْلِ

ويستدر فيذكر كل ما يمكن أن يمر بالخاطر من مثل رنة القوس وضرب الأقاليم وعزيف الجن وزفير النار ونغم المغنى وغطيط النائم وعويل الباكي وقهقهة الضاحك وإهلال المولود وحشجة المختصر وحنين النوق وصهيل الخيل وشحيج البغل ونهيق الحمار وخوار العجل وهدير الجمال وثغاء الشاء وخرير الماء وزفير الأسد وضباح الثعلب وبُعْغام الظبي وعُواء الذئب ومُواء القط ونُبْباح الكلب ونعيب الغراب وهديل الحمام وسَجْجَعُ القُمُرى وشَقْشَقَةُ العصفور وزُقاء الديك وفحيح الأفعى وطنين الذباب .

أرأيت كيف تتحول المقامة إلى متن لغوي قصير ، يجد فيه الطلاب وسيلتهم إلى حفظ موضوع مهم من الموضوعات اللغوية ؟ وإن في ذلك ما يدل على أن

اليازجى نسى مهمة المقامة الأولى وغايتها من عرض الأساليب الأدبية ، وكأنما خيل إليه أنها ألواح لغوية للحفظ والتسميع . ولعل ذلك ما جعله يعرض علينا فى المقامة الخامسة والأربعين الكلمات التى تتابها الظاء والضاد من مثل الظهر والضهر والقيظ والقيض والظَّبَّ والضَب . أما المقامة السابعة والأربعون فقد عرض فيها لمراتب أسماء الخيل وألوانها من مثل أدهم وأبيض وأحمر وأشقر وأبرش وأبقع وأشهب وكيت وأحوى ، حتى إذا استوفى ذلك فى الخيل ذهب يأتى بنظيره فى الجمال .

ونراه فى المقامة التاسعة والأربعين المعروفة بالبنانية ينظم أسماء القِطْع فاجتزأ للصوص والحصد للنبات اليابس والحدع للأنف والقَص للشعر والتقليم للظفر والقط للعلم . ثم يذكر أسماء الكسر فالشَّجُّ للرأس والهشم للأنف والهَمَّ للسنن والقَصَم للظهر والخطم للعظم والهَصْر للغصن . وينظم الحَصَص والقِطْع ، فالقطعة من الخبز كسرة ، ومن الكبد فلذة ، ومن الشراب صُبابة ، ومن النار جاذوة ، ومن الشعير خصاة ، ومن الثوب خِرقة .

ونجد ألواناً من هذه الطُّرُف اللغوية فى المقامات الثانية والخمسين والسابعة والخمسين والثامنة والخمسين . وهو يُخصى ذلك ويستقصيه فى أبيات من الرجز ، بالضبط كما كان يصنع أصحاب الشعر التعليمى . فهو معلّم ، وهو لا يعلم اللغة وحدها بل يعلم طرفاً من التاريخ ومن ألعاب الحريرى البلاغية . وليس ذلك حسب ، فهو يعلم أيضاً العروض ، وقد خصّه بالمقامة الحادية عشرة المسماة بالعراقية ، إذ نثر فيها مصطلحاته وأوزانه ، وألقاب قوافيه شعراً ورجزاً . ولا يكتفى بكل ذلك ، فلا يزال يرى أن تكون مقاماته من القوة والمتانة بحيث تجمع فى جعبتها أكثر ما يمكن من معارف ، وإعله من أجل ذلك خصَّ الطبَّ كما كان يعرف فى عصورنا الوسطى بمقامة ، هى المقامة الثلاثون المسماة بالطبية ، كما خصَّ الفلك بالمقامة الثامنة والعشرين وأسمائها الفلكية ، وفيها نراه ينظم بروج السماء ، يقول :

من البروج في السماء الحملُ تنزل فيه الشمسُ إذ تعتدلُ
والثورُ والجوزاءُ نعم المنزلةُ وسرطانُ أسدُ وسنبُلُه
كذلك الميزان ثم العقربُ قوسٌ وجديٌ دلوٌ حوتُ يشرُبُ
ثم ينظم منازل القمر من مثل الثريا والذبان والنشرة والسمك وسعد السعود
وسعد الأخبية، حتى إذا أكمل ذلك انتقل ينظم لياليه المسماة وطوالع أضوائه وغوارب
أنوائه وأمطاره، وهو في ذلك كله يستخدم الرجز كأنه السيل الذي لا ينقطع .
ولا ريب في أن هذا الجانب في المقامة اليازجية يدل على براعة صاحبها ،
غير أنها براعة لغوية أو علمية ، فنصبح وقد انحرفنا عن رياض الأدب والفن ،
إلى وهاد اللغة والعلم الجافة ، التي قلما نجد فيها روحاً أو ريحانا .

وقد يكون اليازجيّ اندفع في ذلك بحكم حبه للعرب ، إذ كان يتعصب لهم
تعصباً شديداً ، وقد مدحهم وأشاد بهم في غير مقامة ، وأبى أن يتعلم لغة
أجنبية ، وأن يتثقف بالآداب الأوروبية ، واكتفى كما هو واضح في مقاماته
بالثقافة والآداب العربية الخالصة . ثم انطلق يحنّدى على أمثلة القوم ، ومثال
الحريّ خاصة ، متفاعلاً مع ما خُلفوه من تاريخ وأمثال ولغة وغير تاريخ
 وأمثال ولغة ، كأنه يراهم النماذج التي لا تجارى ولا تبارى حتى في ثقافتهم
ومعارفهم .

على أنه ينبغي أن لا يظن القارئ أن اليازجيّ بسّنى مقامته كلها من هذه
المواد التي صوّرتها ، فبين مقاماته مقامات خفيفة ، ليس فيها كل هذه الأدغال
والأعشاب التي رأيناها حتى الآن . ونحن نعرض نموذجاً طريفاً من نماذجه ،
وهو المقامة الرابعة عشرة المسماة بالهزلية ، ليتضح للقارئ من جميع جوانبه ،
يقول :

« حكي سُهَيْل بن عَبَّاد ، قال : كان لي زوجة صناع اليدين ، كريمة
النبعة^(١) ، فحسدني عليها المسنون ، وخانني فيها الدهر الحثون ، فلبثتُ

(١) النبتين : الأب والأم .

بعدها طويلا ، أرددُ زفرة وعويلا ، وأنوح بُكْرَةً وأصيلا ، حتى حال^(١) عليها الحولُ ، وآلت الفريضة إلى العَوَل^(٢) ، فناجيتني الحوْبَاءُ^(٣) ، أن أستبدل ما طاب لي من النساء . ولما لم أجد في الحيِّ ، من تروق بعينيَّ ، أزمعت الاغتراب ، وبكُرت بُكُورَ الغراب ، فهِمَّ سَلَجَتْ^(٤) سحابة النهار على هَمِّ سَلْعَةٍ^(٥) عُبُيرٍ^(٦) أسفار ، حتى إذا جُنُحَ الظلام رفرف ، نزلت بقاعٍ صَفْصَفَ^(٧) ، في خلال نَفْنَفٍ^(٨) . فبينما أَلْقَيْتُ سادى ، وتلقَيْتُ ماء زادى ، سمعت غطيظا^(٩) كأطيظ^(١٠) البعير ، وزفرات تتصاعد كالزفير^(١١) ، فجنحتُ عن القمر^(١٢) إلى السمر ، وأخذت لنفسي الحذر ، ولبثتُ أتنكَّبُ الغُصْنُصَ^(١٣) ، وأقلَّبُ طَرَفِي بين السماء والأرض ، وإذا جارية قد تنهَّدت ، ثم أنشدت :

هل من سبيلٍ لي إلى العَمَاقِ^(١٤) من رِقٍّ ظَلُمٍ أو إلى الإِبَاقِ^(١٥)
ما زلت من ذلك في وثاق تكاد روحى تبلغ التراقِ^(١٦)
أطوى على الطَّوَى^(١٧) من الإملاق حتى إذا امتدَّتْ دُجَى الأَغْسَاقِ
أضوى^(١٨) إلى شَيْخٍ جَوٍّ خَفَّاقِ^(١٩) واهى القَوَى مُنْهَتِكِ الصَّفَاقِ^(٢٠)

-
- (١) حال : أتى . (٢) العول عند الفقهاء : هو أن الفروض الخاصة بالورثة تزيد ، فيقل نصيب الوارث . كنى بذلك عن زيادة مدة البكاء على القدر المفروض . (٣) الحوْبَاءُ : النفس . (٤) هلمج : أسرع في السير . (٥) هلمعة : نافقة سريعة . (٦) عبر أسفار : معودة على السفر . (٧) صفصف : مستو . (٨) نفنف : هوة بين جبلين . (٩) الفطيظ : صوت النائم . (١٠) الأطيظ : صوت البعير من خياشيم . (١١) الزفير : صوت لهب النار . (١٢) يريد : حيث يقع ضوءه . (١٣) أتنكَّب الغمض : أتجنب النوم . (١٤) العتاق : الانعتاق والانطلاق . (١٥) الإباق : الفرار ، ويقال للبد الرقيق خاصة . (١٦) التراقى : عظام أعلى الصدر . (١٧) الطوى : الجوع . (١٨) أضوى : أضْم . (١٩) جو : صفة من الجوى ، وهو الألم في الصدر . (٢٠) الصفاق : من أغشية البطن .

ذِي لَحْيَةٍ أَثِيثَةٍ^(١) الْأَعْرَاقُ تَضْرِبُهَا الرِّيحُ فِي الْآفَاقِ
تَلَبَّدَتْ طَاقًا وَرَاءَ طَاقٍ كَأَن فِيهَا مَرَبِضٌ^(٢) النَّيَاقِ
مِنْهَا دُثَارٌ^(٣) اللَّيْلُ حَتَّى السَّاقِ وَظُلَّةٌ^(٤) النَّهَارِ كَالرَّوَّاقِ^(٥)
يَجْرِي عَلَيْهَا رَمَضٌ^(٦) الْآمَاقِ وَوَضُرُّ الْمُخَاطِ وَالْبُصَاقِ
حَتَّى تَرُدَّ الْمُسْطَ بِالْإِزْلَاقِ فَهَلْ كَرِيمُ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ
يَحْتَالُ لِي بِفَرَجَةِ الطَّلَاقِ وَهَيْبَتُهُ مَالِي مِنَ الصَّدَاقِ
وَزِدَّتُهُ تُبَوِّئِي إِلَى النَّطَاقِ

قال سُهَيْل : فَمَا فَتَنَّتْ بِفَصَاحَتِهَا ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَى قَيْدِ مَلَاَحَتِهَا ،
وَقُلْتُ : لَا جَرَمَ لَإِنَّهُ قَدْ خَازَمَنِي^(٧) التَّوْفِيقُ ، مِنْ مَعَاجِيلِ^(٨) الطَّرِيقِ ، فَأَنْشَدْتُ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ الثَّقَفُ قَدْ صَادَفَ الْكُحْلُ سَوَادَ الْخَدَقِ
وَاهِيًّا لِهَذِي الطَّرْفَةِ الْمُتَفَقِّمَةِ إِنَّمَا تَقُولُ : وَافَقَ شَنْ طَبِيقَةِ^(٩)
فَإِنَّمَا أَحَدُكُمْ مِنْ هَيْبَتِهَا^(١٠)

قال : وَإِذَا بِالشَّيْخِ قَدْ اسْتَوَى ، وَقَالَ : مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ،
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى^(١١) ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ الْبَقَا لَو تَرَكَ الدَّهْرُ لِكِفِّي رَمَقًا^(١٢)
لَمْ تَسْبِقْ إِلَّا رَيْثٌ^(١٣) أَنْ تَطْلُقَا وَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي فُؤَادًا شَيْقًا
وَلَا ذَكَرْتُ جِيدَهَا الْمَطْوَقَا وَلَا جَسْبِيْنَهَا النَّقَّ الْيَتَقَقَا^(١٤)
وَلَا سَوَادَ عَيْنَيْهَا ذَاتَ الرُّقَى وَلَا مُحْيِيَّاهَا الْجَدِيلَ الطَّلِقَا^(١٥)

(١) أَثِيثَةٌ : كَثَّةٌ وَمُلْتَفَةٌ . (٢) مَرَبِضٌ : مَأْوَى . (٣) دُثَارٌ : غَطَاءٌ .
(٤) الظُّلَّةُ : مَا يَسْتَظِلُّ بِهِ مِنَ الشَّجَرِ وَغَيْرِهِ . (٥) الرَّوَّاقُ : السَّقْفُ فِي مَقْدَمِ الْبَيْتِ .
(٦) الرَّمَضُ : مَا يَسِيلُ مِنَ الْعَيْنِ الْمَرِيضَةِ . (٧) يَقَالُ : خَازَمَهُ : إِذَا أَخَذَ كُلُّ مَنِهَا
فِي طَرِيقٍ ثُمَّ تَلَاقَا . (٨) مَعَاجِيلُ : مُحْتَصِرَاتُ . (٩) مِثْلُ الشَّيْخَيْنِ أَوْ الشَّخْصَيْنِ
يَتَطَابَقَانِ . (١٠) هَيْبَةٌ : عَرَبِيٌّ قَدِيمٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الْحَقِّ . (١١) الْعِبَارَةُ كُلُّهَا
اِقْتِبَاسٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ سُورَةُ النِّجْمِ ، أَنْظِرِ الْآيَتَيْنِ ٢ ، ٣ . (١٢) الرَّمَقُ هُنَا : الْفَضْلَةُ مِنَ الْمَالِ .
(١٣) رَيْثٌ : زَمَنٌ . (١٤) الْيَقُّ : الشَّدِيدُ الْبَيَاضُ . (١٥) الطَّلِقُ : الْمَشْرِقُ .

ولا حديثها وذاك المنطقاً لكن لها على مَهْرٍ سَبَقاً
ومهرٌ أخرى بعدها قد لحقاً فإنما الإنسان زوجاً خلقاً
فإن أَرَّ المَهْرَيْنِ عندى غَسَقاً^(١) طَلَّقْتُهَا والصبحُ لم يَسْبِقْهَا
لا عيش للزوجين لم يَسْتَفِقْهَا ومن تراه مُعْرِضاً قد وثِقْهَا
بالحجر فاهجره إلى يوم اللقا^(٢)

قال : فاستفترتني أبيات الشيخ فرحاً ، حتى كدت أصفقُ مرحاً ، ولم
أتمالك أن دلفتُ^(٣) إليه دلفَةً مَن تيمَنُ^(٤) ، وقلت : حَيَّاً اللهُ الشيخَ
فَمَن أنت ومَن ؟ قال : أنا الميارك بن رِيحان ، من بطون قَحْطَان ، وإني
لأرى الفتاة قد شَغَفَتْكَ حُبّاً ، وخَلَبَتْ مِنْكَ لُبّاً ، فإن كنت تملك
النَّقْدَيْنِ^(٥) ، فابذُلْ للجبينِ^(٦) ، واغْتَنِمْ قِرَّةَ العَيْنِ .

قال : فسهَّلَ علىَّ الوجدُ بذلَ الجِدَّةِ^(٧) ، ونفَّحَتْهُ^(٨) بما معي حتى
أفعم رُدْنَه^(٩) ويده ، فأشهد^(١٠) عليه الله والملائكة المقرَّين ، وقال لي : بالرفاء^(١١)
والبنين . فلما طرحت النقد ، واستبحت العقد^(١٢) ، أردتُ أن أتحوَّلَ بأهلي ،
إلى رَحْلِي ، فقال : حاشا لك أن تتركني الليلة سَمِيرَ الفرقدَيْنِ^(١٣) ، ولكن غدّاً
تذهب أنت بالعروس وأنا بخُفَّتِي حُسَيْنِ^(١٤) . فبِتُ عنده بليلة الملسوع^(١٥) ،
وعني لا يأخذها المهجوع ، حتى آذن الصبح بالطلوع . فتبينتُ ، وإذا الفتاة
ليلى الخزامية والشيخ أبوها ميمون ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون^(١٦) ، ما أرى

(١) غسقاً : ليلاً . (٢) يوم اللقا : يوم القيامة . (٣) دلفت : تقدمت .

(٤) تيمَن : تبرك . (٥) النقدين هنا : مهر الأولى والثانية اللتين أشار إليهما فيما سبق .

(٦) اللجين : الفضة . (٧) الجدة : المال . (٨) نفحته : أعطيته .

(٩) رُدْنه : كنه . (١٠) يريد أنه أشهدهم عليه بالطلاق . (١١) الرفاء :

الاتفاق والألفة . (١٢) يريد بالعقد عقد الزواج . (١٣) الفرقدان : نجمان

يهتدي بهما ، وسَمِيرَ الفرقدَيْنِ : كناية عن تفرده ووحده . (١٤) مثل يضرب في الرجوع

بالخيبة . (١٥) الملسوع : الذي لسعته الحية ، والعبارة تجري عند العرب مجرى المثل .

(١٦) العبارة هنا اقتباس من القرآن الكريم ، سورة البقرة آية ١٥٦ .

بَعْلَ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ ، إِلَّا كَعُكَّاشٍ^(١) بَعْلَ طَمِيَّةٍ ، فَاسْتَغْرَبَ الشَّيْخُ فِي الضَّحْكَ ، ثُمَّ أَنْشَدَ غَيْرَ مَرْتَبِكٍ :

سَلاماً يابنَ عِبَّادٍ سَلاماً أَكْهَلًا قَمَتَ فِينَا أُمُّ غُلَاماً
أَرَيْتَكَ^(٢) ، إِنْ مَلَكَتُ طَلاقَ لَيْلِي فَهَلِ^(٣) عَقْدُ مَلَكَتَ بِهِ الزَّامَا
عَرُوسٍ لَيْسَ تَخْلُو مِنْ خُدَاعٍ وَقَدْ لَا تَتَعَدَّمُ الْحَسَنَاءُ ذَا^(٤) مَا
فَطَلَّقَهَا^(٥) ، كَمَا طَلَّقْتُ وَأَعْلَمُ لَقَدْ جُعِلْتُ عَلَى كُلِّ حَرَامَا
عَرَفْتُ وَقَائِعِي فِي كُلِّ أَرْضٍ وَلَكِنْ لَسْتُ تَعْرِفُهَا تَمَامَا
وَلَسْتُ تَرَى سَقَامًا فِي مَرِيضٍ فَتَعْرِفُهُ كَمَنْ ذَاقَ السَّقَامَا
رَزَأْتُكَ^(٦) ، يَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدِي لَشِدَّةٍ فَاقَةَ بَرَّتِ الْعِظَامَا
وَرَبَّ كَرِيمَةٍ أَكَلْتُ بَنِيهَا إِذَا جَاعَتْ وَلَمْ تَجِدِ الطَّعَامَا

قال : فقلت له : شهد الله إنك لأمكرٌ أهل الخافقين^(٧) ، وأقدرهم على الزَّيْنِ والشَّيْنِ ، قال : يا بُنَيَّ ! إِنْ الْخَلَّةُ^(٨) تَدْعُو إِلَى السَّلَةِ^(٩) ، وَالصَّدَقِ خَمَرٌ مَزَاجُهَا الْكَذِبُ^(١٠) ، وَالْجِدُّ ثَوْبٌ طَرَاظُهُ اللَّعِبُ ، وَرُبَّ طُرْفَةٍ^(١١) ، خَيْرٍ مِنْ تَحْفَةٍ^(١٢) ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَمِئْتَ إِلَى الضَّحْلِ^(١٣) ، وَنَسِيتَ أَنْ لَا بَدَ دُونَ الشَّهَدِ مِنْ إِبْرَةِ النَّحْلِ^(١٤) ، فَهَسَبَ الْمَالُ عِنْدِي كَمَا حُدِيَ الْقُرْصُ^(١٥) ، رِيثًا أُرْزَأُ مِنْ أَسْتَنْصِصُ^(١٦) لَكَ مِنْهُ الْعِرَوضُ . قلت : قد علم من عنده علمُ الغيبِ

(١) عكاش : جبل في بلاد العرب يقابل أرضاً يقال لها طمية ، فهما متلازمان ، والكناية واضحة . (٢) أريتكَ : أرايتكَ : أخبرني . (٣) يلفت صاحبه إلى أن الزواج لا يكون إلا بعقد ، بخلاف الطلاق ، فكيف يظن أنها زوجته ، وهو لم يعقد عليها ؟ ! (٤) مثل مشهور ومعناه واضح . (٥) يقول له ذلك من باب التهكم كأنه أصبح بعلاً لها فعلاً . (٦) رزأتكَ : أصبتكَ بأخذ المال .

(٧) الخافقين : الشرق والغرب . (٨) الخلَّة : الفقر . (٩) السلة : السرقة . (١٠) يشير إلى أن الكذب مزاج الصدق كما أن الماء مزاج الخمر . (١١) طرفة : ملححة . (١٢) تحفة : هدية . (١٣) الضحل : الماء القليل . يريد به هنا المال الذي أخذه منه . (١٤) مثل يضرب للدلالة على أن الطرائف لا يوصل إليها إلا بعد طول الجهد . (١٥) يريد أنه عنده قرض وسلف . (١٦) أستنصص : آخذ .

أن هذه الطرفة عندى خير من نخل هَجَرَ^(١) وعرائس الحَصِيب^(٢) ، فاعتنقنى
 كمن تملق^(٣) ، وقال كلانا أفلَس من ابن المُدَلِّق^(٤) ، فن أحزَرَ المال
 فعليه الإنفاق يعلّق . قلت : أنا والمال فى يدك ، وكلانا لك وإليك ، قال :
 حَيَّاك الله فسنستبدلُ الجِسمَ بالتَّسمُر^(٥) ، ولكن اليوم خمرة ، وغداً أمر .
 فقضىناه يوماً صفوا زُلاله^(٦) ، وغاب عُدَّاله ، إلى أن آذنت الشمس بالأفول ،
 وهمَّ النجم بالقفول^(٧) ، فجلسنا على الطعام معا ، ثم أخذ كلُّ منا مضجعا ،
 وطفق الشيخ يُطرفنا من القِصَص ، بما يُسيغ الغُصَص .

وما زال كذلك مذ أطبقت الجَوْدَة^(٨) على الصُّمَيْر^(٩) ، حتى أقبل
 فحمة^(١٠) بن جُمَيْر ، فران^(١١) على جَنَفَتى الكَرَى ، حتى سقطتُ على
 الثَّرَى ، محلول العُرى ، لا أسمع ولا أرى . فلم أنتبه إلا وقد ذرَّ^(١٢) قِترَن الغزاة
 الضاحى^(١٣) ، ولا رجل ولا امرأة فى تلك الضواحي ، فاستعذت بالله من مكروه
 ونُكروه ، وثُرتُ إلى الناقة لأرتحلَ فى إثره ، فلما دَتَوْتُ من قَتَبِها^(١٤) ، إذا
 رقة قد كتب بها :

قُلْ لِسُهَيْلٍ إِذْ يَهْبُثُ فِي السَّحَرِ اعْدِرْ فخير الناس عندى مَنْ عَدَرَ
 خُلِقْتُ مطبوعاً على كَيْدِ البَشَرِ وليس للإنسان تَغْيِيرُ الفِطْرِ
 وَلَا يُعَانِدُ الْقِضَاءَ وَالْقَدَرَ إِلَّا الَّذِى عَصَى الْإِلَهَ أَوْ كَفَرَ

- (١) هجر : بلد بالبحرين . وفى المثل : كستبضع التمر إلى هجر .
 (٢) الحَصِيب : موضع فى اليمن يوصف بجمال النساء . (٣) تملق : لاطف .
 (٤) عربى قديم لم يكن عنده قوت ليلة ، فصار مثلاً للإفلاس .
 (٥) الجمر هنا : كناية عن الشر ، والتمر : كناية عن الخير .
 (٦) زلاله : ماؤه العذب ، كناية عن طيب اليوم . (٧) القفول : الرجوع .
 (٨) الجودَة : اسم الشمس عند الغروب . (٩) الصمير : مكان غروب الشمس .
 (١٠) فحمة بن جُمَيْر : نصف الليل . (١١) ران : غلب . (١٢) ذر قرن
 الغزاة : طلعت الشمس ، وقرنها : أول ما يبدو من طلوعها . (١٣) الضاحى : الظاهر .
 (١٤) القتب : الرجل .

وإن تجدْ سَيِّئَةً فيما نَدَرُ فكمم وكم حَسَنَةً فيما عَبَّرُ
 وإن يكن غَرَّكَ منها^(١) ماظَهَرَ فذلك لا عِلْمَ لها ولا خَبَرَ
 إلا الذي عَلَّمَتْها فيما اسْتَتَرَ فإن تُردُّ صاحبَ هذه الغُرُرِ^(٢)
 فخذْ أباهَا إنه أَسُّ العِبرِ

فلما قرأت تلك الرقعة ، عجبت من تلك الرقاعة ، وعلمت أنه لا يحول
 عن هذه الصنعة ولا يترك هذه الصناعة ، فشكرت نعمته إذ لم يأخذ الناقاة ،
 ورجعت أدراجي لما اعترض دون سَفَرِي من الفاقة .

وأظن في هذه المقامة ما نطلع منه على جملة الصفات والخصائص التي يتميز
 بها اليازجي ، فاسمها المقامة الهزلية ، ومعنى ذلك أنه حاول أن يجري فيها تياراً من
 الهزل والفكاهة على نحو ما رأينا عند بديع الزمان والحريري .

والقارئ يلاحظ معنا أن فكاهة اليازجي جامدة وأن تيارها لا يتدفق ، فمن
 غير شك هذا التيار أقوى عند بديع الزمان والحريري منه ، وكأن طبيعة اليازجي
 الجدية حالت بينه وبين روح الدعابة والفكاهة .

فتوقف هذا التيار وتقطع وظهر في هذه الصورة التي لا نبالغ إذا قلنا إنها
 صورة جامدة ليس فيها انطلاق ، وليس فيها خفة ولا رشاقة ، وكأنما كان
 اليازجي - برغم علمه الواسع باللغة والثقافة العربية - يجهل الدروب والمسالك
 التي تؤدي به وبقرائه إلى واحات بهيجة .

وإن أساليبه لتدخل في صحارى الجزيرة العربية بأكثر مما تدخل أساليب
 البديع والحريري ، فقاماتهما يظهر فيها أثر الحضارة العباسية وما اكتسبته اللغة
 من مقامها في بغداد وعواصم فارس والعراق ، إذ تهذبت ، وتحولت إلى ما يشبه
 التحف الدقيقة ، وأصبحت جزءاً من هذا الفن العربي الفخم الذي نراه في
 واجهات المساجد والبيوتات وسقوفها الأثرية .

(١) منها : أى من المرأة .

(٢) يقول له : إذا أردت أن تأخذ أحداً بما حدث ، فخذنى لأنى أنا صاحب هذه الفنون .

وهما يسجعان حقاً ، ويسجع اليازجى ، ولكن السجع عندهما حلية ، أما عند اليازجى فتحس كأنه غريب عن اللغة التى يُعرَض فيها ، فهى لغة صحراوية متبدية ، بل لعل بدويّاً صحراويّاً لا يستطيع أن يسلك فى أدبه كل ما نجده عند اليازجى من ألفاظ مهجورة .

وقد يكون هذا التبدى أو هذه البداوة أخطر شئ أصاب فن اليازجى لا فى المقامة وحدها ، بل فى كل ما خَلِّف وترك من آثار نثرية أو شعرية . ونقول أخطر شئ ، لأنه باعد بينه وبين الطبيعية والطبع ، وبالتالي باعد بين عصره وآثاره وأعماله ، فإن من عاشوا معه لم يجدوا فى فنه مرآة لحياتهم ، وإنما وجدوه مرآة لغيرهم ، وهى مرآة تتعمق فى القدم حتى تصل إلى العصر الجاهلى بأمثاله الغريبة وألفاظه المهملة .

وهو فى هذا يقترب من ذوق أبى العلاء المعرى فى نثره ، إذ اتخذه وسيلة لإظهار معلوماته ومحفوظاته اللغوية . ولكن أبى العلاء استعان بالفكر والفلسفة وما اشتهر به من التعقيد فى الآراء ، فلم تَبْدُ عيوب هذه الطريقة واضحة كما بدت عند اليازجى ، لأن أبى العلاء سترها بالفكر الدقيق العميق ، ولم تكن لليازجى فلسفته ولا أفكاره .

فخرجت مقامته مهلهلة النسيج ، وهو نسيج بدوى ، لم تتدخل فيه يد الحضارة إلا قليلاً ، على الرغم من أنه استخدم السجع ووشى ألفاظه بألوان البديع . ولكن هذا كله عنده يأخذ شكل طلاء خارجى ، وهو طلاء لا يكاد يندمج فى أساليبه وعباراته ، لما بين الطلاء والمطلّى من المفارقة والمباعدة والمنافضة أحياناً .

ومعنى ذلك كله أن مقامة اليازجى لا ترتفع إلى مراتب مقاماتى البديع والحريرى ، لأنه ضلّ اللغة التى يستخدمها ، فلم ينقل من كتب الأدب ، وإنما نقل من المعاجم ، واختار خاصة أن ينقل من مهجورها ووحشيتها وآبدها . فتخلّفت مقامته ، ولم ينفعه علمه باللغة ، بل لعل هذا العلم هو الذى أضرّ

به ، وكذلك لم تنفعه شاعريته ، بل لعل هذه الشاعرية هي الأخرى أضرت به فإنه استغلها في عمل أراجيزه اللغوية والعلمية التي تحدثنا عنها طويلا .

وبذلك أصبحت صحف مقامته أشبه ما تكون بصحف الأدب التعليمي ، فهو يسلك فيها أوابد الكلمات منشورة ومنظومة ، وهو يكثر من ذلك حتى يمل قارئه ، لكثرة ما يعرضه من هذه الصخور .

وقد تكون هذه الصورة التي انتهت إليها المقامة عنده هي السبب الحقيقي في أن أدباءنا المحدثين نفروا من الجسري والسبقي في هذا المضمار ، كأنهم وجدوه لا يلائم الذوق الحديث . وإننا لنأمل أن يجد هذا الفن من الشباب من يعيد إليه الحياة ، ومن يهب له حيوية خصبة ، لا في إطاره السابق ، بل في إطار جديد ، لا يرتبط بالموضوع البسيط القديم ولا بأبطاله الشحاذين ، وإنما يرتبط بحياتنا الاجتماعية الحديثة وما بها من لواذع السخرية في الكلام والمواقف .

فهرست

الصفحة	
٦ - ٥	مقدمة
١٢ - ٧	معنى المقامة
٧	١ - المعنى اللغوي
٨	٢ - المعنى الاصطلاحي
٩	٣ - خصائص وصفات
١٠	٤ - في الآداب العالمية
٤٣ - ١٣	نشأة المقامة عند بديع الزمان
١٣	١ - بديع الزمان
١٦	٢ - تأليف بديع الزمان لمقامته
٢٤	٣ - الموضوع
٣٢	٤ - الأسلوب
٧٥ - ٤٤	مقامة الحريري
٤٤	١ - الحريري
٤٧	٢ - تأليف الحريري لمقامته
٥٤	٣ - الموضوع
٦٤	٤ - الأسلوب
١٠٢ - ٧٦	مقامات مختلفة
٧٦	١ - على مر التاريخ
٧٩	٢ - مقامة اليازجي
٨٣	٣ - خصائص وصفات في المقامة اليازجية

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٣٠٦٧

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣